المبحث الثاني
تطور شخصية عماد الدين القيادية

أولاً: بزوغ نجمه السياسي:

كان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، منُذ عهد طفولته، ذلك الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية في الأعوام (٤٦٥هـ - ٤٨٧هـ) والمكانة التي حصل عليها نتيجة خدماته للسلاطين السلاجقة، وعمله على تدعيم كيانهم، حتى أنه ضحى بحياته - كما رأينا - في سبيل الولاء للسلطان السلجوقي بركيارق، ولم ينس هذا تضحية آق سنقر في سبيل عرشه فجازاه - بعد مقتله - بتوجيه العناية والاهتمام نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في العاشرة من عمره، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه، وأصحابه الذين كانوا يكنون الحب العميق لآق سنقر [١].

١ – مكانة زنكي عند أمير الموصل كربوقا: لما تولى أمر الموصل قوام الدولة كربوقا سنة ٤٨٩هـ، باسم السلطان بركيارق أولى زنكي اهتماماً خاصاً، وطلب من بعض مماليك والده المقيمين في حلب إحضار عماد الدين إليه وقال لهم: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته، فأحضروه عنده [٢]، ويبدو أن كربوقا أدرك مكانة آقسنقر والد عماد الدين في نفوس كثير من التركمان وعرف ما يكنّون له من الولاء والطاعة، فحرص على أن يضّم إليه ابنه عماد الدين ليحصل على الولاء نفسه الذي يحمله التركمان لوالده، إضافة إلى أن كربوقا أثناء ملازمته لآقسنقر قد أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده، فأراد أن يضمه إلى جانبه للاستعانه به، وبمماليك والده في حروبه ضد خصومه، وربما ليضمن عدم منافسته له مستقبلاً، وقد حظي عماد الدين بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا، وظل عماد الدين زنكي ملازماً له بالموصل إلى أن توفي كربوقا سنة ٤٩٥هـ /١١٠١م [٣].

٢ – مكانته عند الأمير جكرمش والي الموصل: بقيت العلاقة طيبة بين زنكي وشمس الدولة جكرمش الذي أعقب كربوقا على ولاية الموصل (٤٩٥ - ٥٠٠هـ) والذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه وعلى معرفة بالخدمات التي أداها والد زنكي للسلاجقة، ومن ثم توثقت العلاقة بينه وبين زنكي حيث: قربه وأحبه واتخذه ولداً، وظل الأخير ملازماً له حتى وفاته عام ٥٠٠هـ [٤].

٣ – في عهد ولاية جاولي سقاو على الموصل: بعد وفاة جكرمش تولى جاولي سقاو (٥٠٠ -

(١) الباهر ص ١٥، عماد الدين زنكي ص ٣٦.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٣٦.
(٣) الباهر ص ١٦ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣١.
(٤) الباهر ص ١٦ عماد الدين زنكي ص ٣٦.

٥٠٢هـ) على ولاية الموصل وأن زنكي قد بلغ مرحلة الشباب (وبدت عليه علائم الشهامة) وساد الصفاء علاقاته بالوالي الجديد. إلا أن عصيان الأخير للسلطان محمد عام ٥٠٢هـ وهروبه إلى الشام، دفع زنكي إلى الانفصال عنه وجماعة من كبار الأمراء في نفس الوقت الذي عين فيه السلطان والياً جديداً على الموصل هو الأمير مودود بن التونتكين (٥٠٢ - ٥٠٧هـ)، فانضم زنكي ورفاقه إليه. مما كان له أبلغ الأثر في نفس السلطان والوالي الجديد على السواء، الأمر الذي رشحه لأن يكون من كبار أمراء هذا الوالي، وأن يحصل على مزيد من الإقطاعات [١].

٤ – ملازمته للأمير مودود في حرب الصليبيين: لما استقر الأمير مودود بالموصل واتصل به عماد الدين عرف له مكانته بالإضافة إلى منزلة أبيه ولما رأى منه العقل والشجاعة زاد في إقطاعه وشهد زنكي حروبه كلها وخاصة مع الصليبيين في طبرية، وقبل مجيء مودود كان زنكي قد تميز بشجاعته ومقدرته وقد شارك في الغزوات التي قام بها ضد اللاتين ويذكر المؤرخون بكل اعتزاز أن عبقريته كرست للجهاد من السنوات الأولى من عمره [٢]، وقد أظهر في عهد مودود من البطولات في جهاده ضد الصليبيين ما أكسبه شهره واسعة لدى المسلمين وظل ملازماً لمودود حتى مقتله عام ٥٠٧هـ على أيدي الباطنية في جامع دمشق [٣].

٥ – في خدمة الأمير آق سنقر البرسقي: عاد زنكي بعد استشهاد مودود إلى الموصل ليلتحق بخدمة الوالي الجديد (جيوش بك) ثم ما لبث أن انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين، في نفس العام، فقاتل في الرها وسميساط وسروج وأظهر من الشجاعة والمقدرة خلال ذلك ما زاد من شهرته لدى المسلمين [٤]، ودفع السلطان محمد إلى أن يطلب من واليه على الموصل تقديم زنكي والرجوع إلى مشورته تقديراً لإخلاصه وقدراته [٥].

٦ – بعد وفاة السلطان السلجوقي محمد ٥١١هـ: عندما توفي السلطان محمد عام ٥١١هـ، سعى (جيوش) إلى استغلال وجود ابنه مسعود - إذ كان أتابكاً له - ودفعه إلى التوجه إلى بغداد لكي ينصب نفسه سلطاناً على سلاجقة العراق - مستهدفاً من وراء ذلك التحكم الفعلي في شؤون الدولة السلجوقية باسم السلطان الجديد، وقد أيد زنكي هذه المحاولة، وسار الوالي ومسعود متوجهين إلى بغداد على رأس حشد من قوات الموصل إلا أن المحاولة أخفقت بعد سلسلة من الحروب والمناوشات شهدتها منطقة بغداد، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي أعقب أباه في الحكم [٦]. وبعد ثلاثة أعوام حاول جيوش بك أن يثور ثانية ضد السلطان محمود، غير أن زنكي رفض تأييده وأشار على المتمردين: بطاعة السلطان وترك مخالفته وحذرهم عاقبة العصيان. لكنهم لم يلتفتوا إلى قوله، وأقدموا على تنفيذ محاولتهم التي انتهت هي الأخرى بالفشل بعد هزيمة جيوش بك ومسعود على يد

(١) عماد الدين زنكي ص ٣٧.
(٢) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٣.
(٣) الباهر ص ١٧ - ١٩ عماد الدين زنكي ص ٣٧.
(٤) الباهر ص ١٧ - ١٩ عماد الدين زنكي ص ٣٧.
(٥) الباهر ص ٢٤ عماد الدين زنكي ص ٣٨.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٣٨.

السلطان محمود الذي بلغه موقف زنكي منه فقدره حق قدره وأوصى البرسقي والي الموصل الجديد بالعناية به وتقديمه على سائر الأمراء [١].

٧ – تولي عماد الدين زنكي إمارة واسط والبصرة: وعندما عين البرسقي عام ٥١٦هـ شحنة على العراق رافقه زنكي واشترك إلى جانبه في المعركة التي دارت ضد دبيس أمير الحلة وانتهت بهزيمة البرسقي [٢]، الذي رأى أن يزيد من اعتماده على زنكي في صراعه ضد دبيس - فولاه واسط - ذات الموقع الهام - وكلفه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات أمير الحلة. وقد استطاع زنكي أن يسحق في طريقه إلى واسط القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية، وأن يستولي على هذا الموقع [٣] وأظهر زنكي في منصبه الجديد حزماً وكفاءة، وأبان عن مقدرة إدارية فذة [٤]، الأمر الذي دفع البرسقي، حاكم العراق إلى إضافة البصرة إلى ولايته، لكي يصد هجمات الأعراب الدائمة عليها، وينشر الأمن في ربوعها [٥] فانتقل زنكي إليها لكي يحقق فيها ما أنجزه في واسط من نشر للأمن وقضاء على الفوضى. وقد تمكن في وقت قصير من أن يوقف هجمات الأعراب وغاراتهم المتتابعة عند حدها، وأن يجليهم إلى أعماق الصحراء، كما قضى على الفتن التي عمت البصرة، وأظهر مقدرة عسكرية وإدارية كالتي أظهرها في واسط من قبل، مما زاد من مكانته في نظر رجالات الدولة السلجوقية ومن رهبته للأعداء، حتى أن دبيس ابن صدقة - أقوى أمراء الجنوب - تجنب الاصطدام معه، لأنه أدرك أن ليس في طاقته مجابهته والتغلب عليه، وفضل توحيد جهوده ضد الخليفة العباسي في بغداد بدلاً من مقارعة هذا الأمير القدير [٦].

٨ – دفاع زنكي والبرسقي عن الخليفة المسترشد: لم يترك البرسقي وزنكي الخليفة يجابه بمفرده حشود دبيس، فجمعوا قواتهم والتقوا به في مطلع عام ٥١٧هـ قريباً من الحلة، واستطاعوا - بفضل الله ثم الخطة البارعة التي اتبعها زنكي - أن يلحقوا به هزيمة نكراء، وأن يقتلوا ويأسروا الكثير من جنده، واضطر هو ومن سلم من قواته إلى الفرار، بينما عاد المسترشد وحلفاؤه إلى بغداد يستقبلهم الأهالي هناك استقبالاً حافلاً، بعد خلصوهم من خطر محقق كان يحيق ببغداد ويعرضها للنهب والتخريب [٧]، وكان زنكي - لدى مغادرته البصرة - قد فوض شؤونها لمقدم حاميتها الأمير " سخت كمان " فاستغل دبيس بُعْد زنكي عنها وهاجمها على حين غرة وتمكن من قتل مقدم حاميتها ونهب أهاليها، لكن زنكي ما لبث أن عاد إلى البصرة ليقر الأوضاع فيها من جديد، فانسحب دبيس من المنطقة واتجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين [٨].

---

(١) الباهر ص ٢٢ - ٢٤، الروضتين (٧٣/١).
(٢) المنتظم (٢٣٢/٩ - ٢٣٣) الباهر ص ٢٤.
(٣) الباهر ص ٢٥، عماد الدين زنكي ص ٣٨.
(٤) الروضتين (٧٣/١) عماد الدين زنكي ص ٣٩.
(٥) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٣٩.
(٦) المنتظم (٢٤٢/٩، ٢٤٣) عماد الدين زنكي ص ٣٩.
(٧) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٣٩.
(٨) المنتظم (٢٤٩/٩).

٩ – عماد الدين في خدمة السلطان محمود: أقيل البرسقي من شحنكية العراق في عام ٥١٧هـ وأعيد إلى الموصل لقيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين، وعين يرنقش الزكوي شحنة بعده [١]، فأرسل البرسقي إلى زنكي يستدعيه من البصرة ليتجه معه إلى الموصل غير أن الأخير فضل أن يربط مصيره بالسلطان محمود، يصحبه عدد من كبار أمرائه وقرر السلطان محمود تزويجه بأرملة أحد أمرائه الكبار، وتم ذلك في احتفال شهده السلطان وعدد كبير من القادة والمسؤولين [٢] الأمر الذي هيّأ لزنكي فرصة الظهور في محيط كبار الأمراء وتعريف رجالات الدولة السلجوقية بمكانته [٣].

١٠ – تكليف السلطان محمود عماد الدين بتوطيد الأمن في البصرة: غدت البصرة، بعد مغادرة زنكي لها، مسرحاً للفوضى، وهدفاً للنهب والتخريب، وهجمات الأعراب، وبلغ السلطان ذلك فأمر زنكي بالعودة إليها، بعد أن أقطعه إياها عام ٥١٨هـ وطلب منه اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتوطيد الأمن في المنطقة، كما كلفه مهمة الإشراف على واسط والسعي للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة بإرسال جيش للاستيلاء عليها، إذ كانت هدفاً لمحاولاته التوسعية [٤]، غادر زنكي أصفهان إلى البصرة وباشر مهام منصبه، فأحسن معاملة أهلها واستطاع أن يخلصهم من هجمات الأعراب، وذلك عن طريق تنظيم دوريات عسكرية دائمة للقيام بهجمات مضادة على الأعراب ونصب الكمائن لهم، كما اهتم بالوقت ذاته بأمور واسط وأخذ يمد السلطان بأخبار العراق بحيث لم يخف على الأخير شيئاً من أموره، الأمر الذي زاد من تقديره لزنكي ومن ارتفاع منزلته عنده، ورشحه لمنصب شحنكية العراق [٥].

١١ – الصراع بين الخليفة المسترشد والسلطان السلجوقي: في عام ٥١٩هـ تدهورت العلاقات بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي رأى نفسه مضطراً للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة وفرض سيطرته المباشرة على العراق. وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط إلا أن زنكي تمكن من صده والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط. وفي العشرين من ذي الحجة وصل السلطان إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب منه إقرار الصلح فرفض الأخير طلبه، الأمر الذي أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين وقد رأى السلطان أن يعتمد على زنكي في صراعه هذا فأرسل إليه يأمره بالحضور إلى بغداد على رأس قواته وأن يجلب معه ما يستطيع من زوارق حربية وسفن، فنفذ زنكي الأمر، وجمع عدداً كبيراً منها، إثر جولة قام بها في مناطق العراق الجنوبي لهذا الغرض، وبعد أن ملأها بالمقاتلة اتخذ طريقه إلى بغداد، وما إن بلغ الخليفة نبأ تقدم زنكي بقواته الحاشدة براً ونهراً، حتى أدرك أن ليس في طاقته الصمود طويلاً إزاء شروط السلطان، وأن بغداد مقبلة على حصار شديد في البر والنهر، فأرسل إليه

(١) المنتظم (٢٤٩/٩).
(٢) الباهر ص ٢٧ - ٢٨ عماد الدين زنكي ص ٤٠.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٤٠.
(٤) الباهر ص ٢٨ عماد الدين زنكي ص ٤١.
(٥) الباهر ص ٢٨ عماد الدين زنكي ص ٤١.

يعلن موافقته على الصلح، ومن ثم دخل السلطان بغداد حيث تمت المصالحة وساد الوئام [١]. وهكذا لعب زنكي دوراً حاسماً في وضع حد للصراع بين السلطان والخليفة والذي كان من المحتمل أن يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها [٢].

١٢ – تولي عماد الدين شحنكية العراق: ولما أراد السلطان محمود الرحيل نظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية العراق، وبغداد، ويأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور فلم ير في أمرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ويرفع هذا الخرق من الاتساع وتقوى على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي فولاه شحنكية العراق مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع وسار السلطان عن بغداد [٣]، وقد اطمأن إلى نفوذه في العراق، بعد أن أناب عنه الرجل الذي يستطيع أن يقوم بمهام منصبه خير قيام وأصبح عماد الدين منُذ ذلك التاريخ يصرف الأمور لا في بغداد وحدها بل في سائر جهات العراق[٤].

ثانياً: دور الفقهاء في تعيين عماد الدين على الموصل:

عندما توفي أمير الموصل عز الدين البرسقي عام ٥٢١هـ/١١٢٧م تولى أمرها أخ صغير له تحت وصاية مملوك تركي يدعى جاولي، أدرك الفقهاء أن ضعف الموصل لابد وأن يؤثر على حلب وبلاد الشام في هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ الصراع، إذ أن ذلك الفراغ السياسي، وعدم وجود قيادة عسكرية قوية في الموصل لابد وأن يلقى انعكاساً على الصراع الصليبي الإسلامي [٥]، ولذلك قامت عائلة الشهرزوري المعروفة بالعلم والصلاح بدور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائدا عسكرياً قوياً. حقيقة أن جاولي قام بإرسال القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهر زوري، ونائب عز الدين البرسقي صلاح الدين محمد الياغيسياني إلى بغداد، التي كان بها السلطان محمود السلجوقي، وكذلك الولاية في الموصل لأخ عز الدين الصغير حتى يظل يسيطر باسمه على الحكم فيها بصفة الوصاية عليه، إلا أن القاضي ورفيقه أدركا ذلك الهدف وأنهما ليس في نيتهما تحقيق هدف جاولي، لاعتقادهما بعدم كفاءته لذلك الظرف الصعب، حيث كانا على معرفة بطباعه وتصرفاته التي لا يرضيان عنها، ويبدو في الوقت نفسه أنهما كانا على علاقة متينة بعماد الدين زنكي حيث خططا معاً في أن يتمكنا من إقناع ذلك السلطان لتوليه الموصل وحلب، حرصاً منهما على عدم ضياع البلاد الإسلامية وخاصة الموصل في أيدي الصليبيين [٦]، وبوصول القاضي ورفيقه إلى بغداد اتصل صلاح الدين محمد بأحد أقربائه في بغداد نصر الدين جقروا حيث كان بينهما مصاهرة [٧] واجتمعوا به وقرروا أن جاولي لا يصلح لحفظ البلاد لأنه كان سيئ السيرة [١]،

(١) المنتظم (٢٥٢/٩ - ٢٥٩) الباهر ص ٢٨ - ٣١.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٤١، ٤٢.
(٣) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٨.
(٤) الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٢.
(٥) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ٨٤.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ٨٤.
(٧) المصدر نفسه ص ٨٤.

وأخذ القاضي الشهرزوري على عاتقه حمل الأمانة وقول الحق، فاجتمع هو وصلاح الدين الياغيسياني بوزير السلطان السلجوقي [٢]. وقالا له: قد علمت أنت والسلطان السلجوقي أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها واستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين [٣]، ويتضح من خلال حديث القاضي بهاء الدين الشهرزوري مبلغ تخوفه من سيطرة الصليبيين على أراضي الإسلام وخشيته من اتساع الرتق باستيلائهم على المزيد منها، وحاجة البلاد إلى الرجل المناسب لوقف التوسع الصليبي والتصدي له. فاستطرد قائلاً: ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها [٤] ومن عمق إحساسه بالمسؤولية أمام الله والعباد نراه يقول: وقد أنهينا الحال إليك لئلاً يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله واللوم من السلطان [٥]، وهذا يعطينا درساً مهماً في دور هذا الفقيه الذي وضع مصلحة الأمة فوق كل اعتبار ولم يتأثر بترغيب ولا ترهيب من حاكم الموصل الذي أرسله للسلطان السلجوقي، كما أن في اختيار كمال الدين الشهرزوري لعماد الدين زنكي تزكية له من بين بقية الأمراء في ذلك العهد. وقام وزير السلطان شرف الدين أنوشرون بن خالد بتوصيل مطلبهما وحال بلاد الشام إلى السلطان محمود. وبواسطة ذلك الوزير اقتنع السلطان برأيهما وحالهما. وتحقق هدفهما عندما استشارهما فيمن يفضلون لولاية الموصل، ويبدو أن القاضي الشهر زوري ورفيقه أشارا عليه بمجموعة من القادة المسلمين من بينهم عماد الدين زنكي حتى لا يشك في أمرهما وإصرارهما عليه إلا أنه اختار عماد الدين بإيعاز من وزيره أنوشروان وعينه والياً على الموصل [٦]، وهنا يظهر دور العالم القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري في اختيار القائد الأفضل لقيادة القوى الإسلامية نحو مواجهة الغزو الصليبي حتى كان لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي حيث تمكن من خلاله غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ورحب به أهلها عام ٥٢١هـ/١١٢٧م لأن موقع حلب الاستراتيجي بين بلاد الشام، ومناطق أعالي الفرات هو الذي جعلها في قلب الأحداث آنذاك حتى أن ذلك الأمير عماد الدين قد أدرك أهمية ذلك الموقع بالنسبة لبلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية وتمنى لو أخذها المسلمون قبل أن يدخلها الصليبيون [٧].

إن هذا العدو قد طمع في البلاد وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام.. فالمسلمون أولى من الكفار

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١٠٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١٠٧.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء ص ١٠٧.
(٥) الكامل في التاريخ (٦٥٩/٨).
(٦) المصدر نفسه (٦٥٩/٨).
(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام ص ٨٦.

بها [١].

١ – مكانة القاضي بهاء الدين الشهرزوري عند عماد الدين:

واعترافاً من عماد الدين زنكي بما بذله القاضي بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه ورداً لجميله نحوه عينه قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وكذلك زاده أملاكاً وإقطاعاً واحتراماً وكان يثق فيه وفي آرائه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان عماد الدين يستشيره في معظم الأمور الهامة في دولته حتى صرح ابن الأثير بذلك قائلاً: وكان لا يصدر إلا عن رأيه [٢]. إن احترام العلماء وتقدير آرائهم، واستشارتهم من عوامل وأسباب نجاح القادة السياسيين والعسكريين.

٢ – أتابكيَّة الموصل:

مال السلطان السلجوقي إلى تولية عماد الدين زنكي إمارة الموصل لما علم من شهامته وتمكنه من إنجاز المهام التي أنيطت به من قبل، وأمره بالحضور وبعد مناقشات قصيرة اقتنع السلطان بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد ومن ثم أصدر منشوراً بتوليته الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام، وسلمه ولديه ألب أرسلان والخفاجي ليكون أتابكاً لهما (أي أبا مربياً) وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومنُذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكاً وأصبح كل من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر وفي الثالث من رمضان عام ٥٢١هـ وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز، قادماً من بلاد فارس، ليتولى شحنكية العراق، فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلم مهام منصبه الجديد [٣]، وتعتبر أتابكيَّة الموصل نواة للدولة الزنكية [٤].

ثالثاً: أهم صفاته:

كان عماد الدين زنكي حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين [٥] معتدل الطول [٦]، وخط الشيب رأسه في سني حكمه الأخيرة [٧]، وكان ذا شخصية قوية، شديد الهيبة على رعيته وجنده [٨]، جاداً في معظم الأحيان، وكان جده الصارم يمنعه من الاستسلام للراحة أو النزف ويدفعه إلى مواصلة كفاحه من أجل أهدافه، ويجعل أصوات السلاح ألذ في سمعه من غناء القينات[٩] وإليك تفصيل أهم صفاته.

١ – شجاعته:

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٦.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص ١٠٨.
(٣) المنتظم (٥/١٠) عماد الدين زنكي ص ٤٥.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٢٧.
(٥) الباهر ص ٧٦ عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٦) الروضتين (١٠٨/١) عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٧) الباهر ص ٧٦ عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٨) زبدة حلب (٢٩٠/٢ - ٢٩١) عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٩) الباهر ص ٨١ عماد الدين زنكي ص ١٧٣.

فقد ورث الشجاعة عن أبيه الذي تقدم في جيش ملكشاه وقد مّر معنا شيء من سيرته وقوله لتتش المنتصر وهو الأسير بين يديه: لو ظفرت بك لقتلتك، ويلقى نتيجة جرأته فيقتله تتش صبرا [١] وقد تقدم عماد الدين عند أمراء الموصل بشجاعته، وظهرت شجاعته في القتال في زمن مبكر، فقد سار مع مودود في غزوته ضد الإفرنج وخرج إفرنج طبرية للدفاع عنها، فحمل عليهم، وانهزم الإفرنج من أمامه وطعن باب سور طبرية طعنة أثرت فيه وكان أصحابه قد تأخروا عنه، لما قرب من الأسوار ومع ذلك قاتل متراجعاً، فعجب الناس من شجاعته ونجاته [٢]، قال أبو شامة في شجاعته: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النِّهاية فيهما، وبه كان تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحْدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها، وبيت سُكْمان، وركن الدولة داود صاحب صحن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج ثم صاحب دمشق وكان ينتصف منهم ويغزو كُلاًّ منهم في عقر داره ويفتح بلادهم، ما عدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع وكلٌّ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده [٣]. وحمل على قلعة عقر الحميدية في جبال الموصل، وأهلها أكراد وهي على جبال عال، فوصلت طعنته إلى سورها، وفي حصار الرها، جمع أمراءه عنده، ومد السماط، وقال: لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً في باب الرها، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد، وصبي واحد لا يعرفه، لما يعرفون من أقدامه وشجاعته وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: ما أنت وهذا المقام فقال عماد الدين: دعه، فإني أرى والله وجها لا يتخلف عني [٤]، وكان يقدر الشجعان وكان لا يضطرب أمام أي خطر [٥].

٢ – هيبته:

كان عماد الدين ذا هيبة شديدة في نفوس أصحابه لا يجرؤون على الجلوس بين يديه، واشترك معه في الحروب أجناس مختلفة، ويحتاج ضبطها من الدراية والمهارة والهيئة، فاستطاع بشخصيته القوية، فرض النظام على جميع جنده، وكان ذا هيبة وسطوة، وكان إذا مشى يسير العسكر خلفه في صفين، كأنهم الخيط خوفاً أن يدوس أحدهم الزرع ولا يجسر أحد أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يجسر أن يأخذ من فلاح تبن إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، وإن تعد أحد صلبه[٦]. وهيبته كانت في نفوس قادته قال علي كوجك نائبه بالموصل: لما فتحنا الرها مع الشهيد، وقع بيدي من النهب جارية رائعة أعجبني حسنها، ومال قلبي إليها فلم يكن بأسرع من أن

(١) مفروج الكروب (٢٦/١).
(٢) أخبار الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٠.
(٣) كتاب الروضتين (١٦٠/١).
(٤) مفرج الكروب (٩٣/١).
(٥) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٥٩.
(٦) تاريخ حلب ص ٢٨٣، الحروب الصليبية ص ١٥٩.

أمر الشهيد، برد السبي والمال المنهوب وكان مهيباً مخيفاً فرددتها وقلبي معلق بها [١]، وخرج يوماً من باب السر، في قلعة الجزيرة خطوة، وملاح لـه نائم فأيقظه بعض الجاندرية من مماليك السلطان فحين رأى الشهيد سقط على الأرض فحركه فوجده [٢] ميتاً، وركب يوماً فعثرت دابته، وكاد يسقط عنها فاستدعى أميراً، وكان معه، فقال لـه كلاماً لم يفهمه، ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد إلى بيته وودع أهله عازماً على الهرب فقالت لـه زوجته: ما ذنبك وما حملك على الهرب؟ فذكر لها الحال، فقالت لـه: إن نصير الدين لـه بك عناية، فاذكر لـه قصتك، وافعل ما يأمرك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب وأهلك. فلم تزل به زوجته تراجعه وتقوي عزمه إلى أن عرّف نصير الدين حاله، فضحك منه وقال لـه: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه، فهي التي أراد. فقال: الله الله في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك، فإنه ما أراد غير هذه الصرة. فحملها إليه فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم، فأمره أن يتصدق به، فلما فرغ من الصدقة قصد نصير الدين وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصُرة؟ فقال: إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم، يرسل إليّ يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، فأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة [٣]، واجتمع حولـه العرب والترك والتركمان والأكراد والبدو وكان يجتهد أن تضبط أمور هذه الجموع بحكمة القائد الماهر، ويضبطهم في أحرج الأوقات، فعندما اقتحم جنده الرها، وكادوا يأتون على ما فيها، كف أيديهم وحافظ على البلد لأن تخريب مثله لا يجوز في السياسة كما قال [٤] وخاف خصومه قصد ولايته لعلمهم أنهم لا ينالون منها عرضاً [٥]، وبلغ من خوف الفرنجة منه أنه رفع الحصار عن قلعة البيرة لقتل نائبه في الموصل، فسلمها أهلها إلى حسام الدين تمرتاش خوفاً من عودة الشهيد إليهم [٦]، وكان يخشاه سلاطين السلاجقة، ولا يقدرون على قصد بلاده، فيقول ابن الأثير: أراد السلطان مسعود زنكي لإثارته الأطراف عليه ومنع السلطان مسعود قصده، حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله [٧]، والخليفة المسترشد نفسه، حاصر الموصل فلم ينل منها شيئاً مدة ثلاثة شهور [٨].

٣ – ذو دهاء ومكر وحيلة:

كان ذا دهاء ومكر وحيلة، وذكاء نافذ في مجابهة المشاكل الحربية والسياسية، وقد مكنه ذلك من اجتياز كثير من الصعوبات، وتحقيق مزيد من الانتصارات فمن مناورته البارعة ضد التحالف البيزنطي الصليبي عام ٥٣٢هـ فقد أرسل إلى قادته يقول: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية نقلاً عن تاريخ حلب ص ١٥٩.
(٢) مفرج الكروب (١٠٥/١).
(٣) مفروج الكروب (١٠٥/١).
(٤) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٥٩.
(٥) الباهر ص ٢٥.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٠.
(٧) الباهر والكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٠.
(٨) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٠.

إلى الصحراء حتى نلتقي، وتكون الغلبة لأحد الطرفين فظن الروم والصليبيون أن وراءه قوات ضخمة أتاحت له أن يطرح تحديه، فتجنبوا لقاءه وهو ما كان زنكي يرجوه، ثم راح بعد ذلك يراسل إمبراطور الروم ويوهمه أن الصليبيين متفقون مع المسلمين سراً وبالعكس، واستطاع بذلك أن يبذر بذور الانشقاق في الجبهة المسيحية مما اضطر قواتها إلى الانسحاب [١]. هذا إلى أنه فتح الرها وهو أكبر نصر حققه في حياته، معتمداً على الحيلة والمكر، إذ اتجه إلى آمد موهماً الصليبيين أنه يسعى لحصارها، وما إن رحل أمير الرها عن حاضرته مطمئناً إلى انهماك زنكي بمشاكله في ديار بكر حتى انقضى الأخير عليها وتمكن من اجتياحها [٢].

٤ – ذكاؤه:

من ذكائه أنه لم يظهر أنه مستقل عن السلاطين السلاجقة، بل أظهر أنه يحكم بأمرهم، فقد كان معه ولدان من أولاد السلطان محمود بن محمد السلجوقي وهما ألب أرسلان وفرخشاه ويعرف بالخفاجي وكان يظهر أن الحكم له في بلاده، وأنه نائب عنه، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة يقول: قال الملك كذا وكذا، وكان ينتظر موت السلطان مسعود، ليجمع العساكر باسم ألب أرسلان، ويخرج الأموال ويطلب السلطنة، فعاجلته المنية قبل ذلك [٣]، وكان ابنه سيف الدين غازي عند السلطان مسعود ليثق بطاعته [٤]، وكان يثير الأطراف على السلطان مسعود حتى يحتاجه ويجمعهم عليه مرة ثانية ليشتغل بهم عنه [٥].

٥ – يقظته وحذره:

كان عماد الدين زنكي شجاعاً غير هياب، إلا أنه كان حذراً يحتاط للأمور، فقد كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها، حتى في خلواتهم، ولا سيما بلاط السلطان وكان يدفع في ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان، في ليله ونهاره، من حرب وسلم وهزل، وجد، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة كتب وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغيرة وكان يقول: إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً، وكان لا يمكن ملك أن يعبر بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه رسول في العبور أذن له، وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها، ولا يعلم من أحوالها شيئاً. ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة، أودع بعضها بسنجار وبعضها بالموصل، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات فتق أو حيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره [٦]، وكان الرجل طويل الفكر كتوماً لا يعلن عما ينويه، إلا بعد أن

(١) الباهر ص ٥٥ ـ ٥٦ عماد الدين زنكي ص ١٧٤.
(٢) الباهر ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٣) أخبار الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٨.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٨.
(٥) مفروج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٨.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٧.

يتخذ الأهبة الكاملة، وأن يفرض أسوأ الاحتمالات، ويعد نفسه لها، فلما سار من بغداد قاصداً الموصل أخذ البوازيج وهي قرية قرب تكريت [١]، ليملكها وتقوى بها، ويجعلها في ظهره أن منعه جاولي عن البلاد [٢]، ومن حذره تردده في دخول دمشق بعد أن وعده جماعة من أهلها بفتح أبوابها له، خوفاً من أن يتفرق جيشه ولضيق المسالك ولإمكان مهاجمتهم من ظهور البيوت [٣]. ولما وصل الروم الفرنج إلى الشام نازلوا حلب، ولم ير عماد الدين أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة [٤].

٦ – قدرته على اختيار الأكفاء من الرجال:

وكان يختار الرجال الأكفاء، الذين أخلصوا له، وكانوا دعائم دولته، ودولة أبنائه من بعده، فقد كانت له همة عالية، ورغبة في الرجال وذوي الرأي والعقل، ويرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويوفر لهم العطاء، وقال ابن الأثير: حكى لي والدي، قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين، ويحصل له في كل سنة ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منه بخمسمائة دينار فقال لهم بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، إن شغلا واحد يقوم به كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال رحمه الله [٥]، وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم فقد أعطى يوماً خُشكُنانكة [٦] إلى طشت دار له وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنة لا تفارقه خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد سنة سأله عنها، فأخرجها من منديل كان لا يفارقه خوفاً من أن يطلبوا منه، فاستحسن ذلك وجعله در دار لقلعة كواشي [٧] - وهي قلعة حصينة في الجبال الواقعة شرقي الموصل[٨]، وكان يخطب الرجال ذوي الهمم والآراء الصائبة والأنفس الأبية ويوسع في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع الرجال، ومن أسباب توفيقه أنه كان نقاداً للرجال، يعرف كيف يختار الأكفاء الصالحين منهم ويوليهم ثقته [٩]، فمن هؤلاء:

أ - بهاء الدين الشهرزوري الذي يقول عنه ابن القلانسي: وكان صاحب عزيمة وهمة نافذة ويقظة ثابتة.

ب - ومنهم وزيره ضياء الدين أبي سعيد بن الكفرتوثي، وكان على ما حكى عنه، حسن الطريقة جميل العقل كريم النفس مرضي السياسة مشهوراً للنفاسة والرئاسة.

---

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٧.
(٢) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٨.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٨.
(٤) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٨.
(٥) كتاب الروضتين (١٥٩/١، ١٦٠).
(٦) معناها: كعكة.
(٧) مفرج الكروب (١٠٣/١).
(٨) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٦.
(٩) المصدر نفسه ص ١٦٦.

ج - ومنهم نصر الدين جقر وقد كان لنصير الدين أخبار في العدل والإنصاف وتجنب الجور والاعتساف، أخباره متداولة بين التجار والمسافرين ومتناقلة بين الواردين والصادرين من السفار وقد كان رأيه جمع الأموال من غير جهة حرام، لكنه يتناولها بألطف مقال وأحسن فعال، وأرفق توصل واحتيال، فهذا محمود من ولاة الأمور وقصد سديد في سياسة الجمهور، وهذه هي الغاية في مرضي السياسة والنهاية في قوانين الرياسة [١].

٧ – تقديره للرجال:

ويظهر تقديره للرجال من تولية نائبه بالموصل فبعد مقتل نصير الدين؟ ارتاب في من يقيمه في موضعه، ويخلفه؟ في منصبه، فوقع اختياره على الأمير علي كوجك، لعلمه بشهامته ومضائه في الأمور وبسالته، فولاه مكانه، وعهد إليه أن يقتفي آثاره في الاحتياط والتحفظ، وتتبع أفعاله في التحرز، واليقظة وإن كان لا يغني غناءه ولا يضاهي كفاءته ومضاءه، فتوجه نحوها، وحصل بها وساس أمورها، سياسة سكتت معها نفوس أهلها، وبذل جهده في حماية المسالك وأمن السوابل، وقضاء حوائج ذوي الحاجات، ونصرة المظلومين فاستقام الأمر وحسنت بتدبيره الأحوال وتحققت بيقظته في أعماله الأمان [٢].

٨ – قليل التلون والتنقل:

وكان عماد الدين زنكي رحمه الله قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغيّر على أحد من أصحابه مُذْ مَلَك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغير والأُمراء والمِقَّدمون الذين كانوا معه أولاهم الذين بقوا أخيراً من سَلِمَ منهم من الموت فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل، الديوان وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهْزُوري، فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العليَّة والآراء الصائبة والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف [٣].

٩ – غيرته:

اتصف عماد الدين زنكي بالغيرة الشديدة ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري وقلَّما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعُرض إلى حُرمهم هلكن وفَسَدْن [٤]، وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصَّه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعَّرض للحُرمَ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغسياني أن يسير مُجدا ويدخل الجزيرة، فإذا

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٥ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٦.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٢.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٦٣/١).
(٤) الباهر ص ٨٤.

دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه، عقوبة لنظره بهما إلى الحرم، ثم يصلبه، فسار الصَّلاح مجُداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصَّلاح ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسلِّم عليك ويريد أن يُعلَيَ قدرك ويرفع منزلتك ويسلِّمَ إليك قلعة حلب، ويوليَّكَ جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دِجْلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصَّلاح وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله [١].

١٠ – عدله:

حرص عماد الدين زنكي على نشر العدل بين رعيته، فقد أوصى عماله بأهل حران، ونهي عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية هذا ما حكاه أهل حران، وأما فلاحو حلب، فإنهم يذكرون ضد ذلك لأنه كان يلزم الناس ويجمع الرجال للقتال والحصار [٢]، وكان من أحسن الملوك سيرة وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل، يعجز القوي من ظلم الضعيف ومما رواه أبو شامة، أن الشهيد كان بجزيرة في الشتاء، فدخل الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده، ونزل بدار يهودي وأخرجه منها، فاشتكى اليهودي والشهيد راكب وبجانبه عز الدين أبو بكر الدبيسي، ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر، نظر إلى أبي بكر الدبيسي نظرة غضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقرى ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتمل نصب الخيام، فوضعوا عليها التبن، وخرج إليها من ساعته[٣]، وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأراضي، والاكتفاء بالإقطاعات لأن الأملاك متى صارت لأصحاب السلطان، ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم ولحسن سيرته قصده الناس يتخذون بلاده داراً للإقامة [٤] ومن عدله أنه لما فتح المعرّة وأخذها من الفرنج جاءه الناس يطلبون أملاكهم وكان عماد الدين حنفي المذهب ومن مَذهب أبي حنيفة - أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك المسلمين خرجت تلك الأموال عن أصحابها لصيرورة البلد دار حرب، فإذا عاد البلد بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال، ولما طلب الناس منه أملاكهم استفتى عماد الدين الفقهاء، فأفتوه بما يقتضيه مذهبهم، وهو أن الأملاك لبيت المال، ولا حظَّ لأصحابها فيها فقال: رحمه الله: إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم ونحن نأخذ أملاكهم فأي فرق بيننا وبين الفرنج؟ كل من أتى بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها، فرد إلى الناس جميع أملاكهم، ولم يعترض لشيء منها [٥].

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٦١/١).
(٢) زبدة حلب ص ٢٨٤ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٢.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٥٧/١).
(٤) المصدر نفسه (١٥٨/١).
(٥) مفرج الكروب (٧٥/١).

١١ – عبادته:

كان عماد الدين زنكي يشعر بمسؤوليته كمسلم سواء في سياسته وعلاقاته العامة أم في سلوكه الشخصي فقد كرس حياته وطاقاته في سبيل (الجهاد) ضد الصليبيين والجهاد من أفضل أركان العبادة[١]، واعتبر نفسه قائد المسلمين الأول في الوقوف بوجه الخطر الصليبي معتقداً أن مركزه - كأقوى أمير في المنطقة - يحتم عليه ذلك ولعل موقفه من التحالف البيزنطي الصليبي ضد المسلمين عام ٥٣٢هـ يوضح طبيعة نظرته في هذا المجال، فعندما قرر الاستنجاد بالسلطان السلجوقي واعترض قاضيه بأن ذلك ربما أدى إلى تمهيد الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بلاده ردّ قائلاً: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار [٢]، وكان كلما قرر التوجه لقتال الصليبيين استثار في المسلمين تعشقهم للجهاد ففي عام ٥٢٤هـ - على سبيل المثال - اتجه إلى الشام وصمم العزم على الجهاد... وإعلاء كلمة الله [٣]، وفي عام ٥٣٢هـ سار إلى بعرين الخاضعة للصليبيين: وجمع عساكره وحثهم على الجهاد [٤]، وعندما عزم على فتح الرها عام ٥٣٩هـ تبعته العساكر.. عازمين على أن يؤدوا فريضة الجهاد [٥]. وقد لاقى فتحه للرها استبشاراً عاماً لدى المسلمين في كل مكان: فامتلأت به المحافل في الآفاق [٦]، واعتبروه نصراً حاسماً للإسلام ضد الصليبية [٧]، ومن ثم فإن مفهوم الجهاد خلع على عماد الدين زنكي صفة إسلامية في نظر المسلمين إلى الحد الذي دفع العماد الأصفهاني إلى القول: بأنه كان قطباً يدور عليه فلك الإسلام [٨]، كما ذكر رنسيمان أن زنكي اعتبر نفسه (حامي الإسلام) ضد الصليبيين [٩]، وتتضح نزعة زنكي الدينية في سياسته الداخلية وفي سلوكه الشخصي كذلك، وهناك العديد من الأمثلة التي تبين إلى أي مدى بلغ الحسّ الديني لدى هذا الأمير المسؤول، فعندما قام عام ٥٣٤هـ - على سبيل المثال - بتولية هبة الله بن أبي جرادة قضاء حلب قال له: هذا الأمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه، فينبغي أن تتقي الله [١٠]. وكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار جهراً، ويتصدق بما عداها من الأيام سراً [١١]. كما كان يستفتي الفقهاء والقضاة قبل إقدامه على كثير من الأعمال [١٢]، وقد أقام

(١) تاريخ دولة سلجوق ص ١٨٦ عماد الدين زنكي ص ١٨٦.
(٢) الباهر ص ٦٢ عماد الدين زنكي ص ١٧٥.
(٣) الباهر ص ٣٩ عماد الدين زنكي ص ١٧٥.
(٤) الباهر ص ٣٩ عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ عماد الدين ص ١٧٦.
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(٧) المصدر نفسه ص ١٧٦. الباهر ص ٦٩ - ٧٠.
(٨) تاريخ دول آل سلجوق ص ١٨٥.
(٩) عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(١٠) زبدة حلب (٢/٢٧٤ - ٢٧٥).
(١١) الباهر ص ٨١ عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(١٢) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٦.

الحدود الشرعية في أنحاء بلاده [١].

*** شبهات حول شخصية عماد الدين:**

إن عدداً من المؤرخين يأخذون على زنكي لجوءه إلى الغدر والظلم إزاء أعدائه في بعض الأحيان، فيصفه الأصفهاني بأنه كان يبلغ في ذلك حد الظلم [٢] ويصفه الذهبي بالظلم والزعارة [٣]، ويذكر أسامة بن منقذ كيف كان زنكي أحيانا يسكت عن الأساليب القاسية التي اتبعها أحياناً بعض كبار موظفيه أمثال الياغسياني حاجبه [٤]، ونصير الدين جقر نائبه في الموصل [٥]، ويحمل ابن واصل عليه لدى استعراضه أحداث الهجوم على حماة عام ٥٢٤هـ - قائلاً: وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه، ولا شيء أقبح من الغدر. ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء، استفتى الفقهاء في ذلك، فأفتاه من لا دين له، وجوز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً وعرفا [٦]. وقد ناقش الدكتور عماد الدين خليل تلك التهم وقال:.. ولعل ما يبرر لزنكي موقفه هذا إزاء أمراء الشام، محاولته الجادة لكسب الوقت وتوحيد العدد الأكبر من المدن ذات الحكم الذاتي هناك من أجل الإسراع بتشكيل الجبهة الإسلامية الموحدة للوقوف بوجه الخطر الصليبي، بعد أن أدرك عدم إمكان تحقيق نصر حاسم ضدهم في حالة تمزق بلاد الشام إلى إمارات عديدة متطاحنة، فكان لابد من الخدعة سيما وأنها في حالة كهذه توفر على المسلمين كثيراً من الجهود والدماء، لذا نجد زنكي يستفتي الفقهاء قبل أن يقدم على فعلته هذه، وشبيه بهذا الحيلة الطريفة التي مكنته عام ٥٢٩هـ من الاستيلاء على الرقة، دون سفك قطرة دم واحدة [٧]. وهل الحرب ضد الأمراء الذين نسوا وحدة الأمة ومصالحها الحيوية، إلا خداعهم والكيد لهم، أما إعدامه بعض أمراء بعلبك أثر استيلائه عليها بعد قتال عنيف عام ٥٣٤هـ فقد جاء نتيجة نقضهم بعض الشروط التي تم الاتفاق عليها قبيل مغادرتهم القلعة [٨] ولعل هذه الحادثة هي أبرز ما دفع المؤرخين إلى وصف زنكي بالقسوة والغدر، وقد أشار ابن الأثير - في الكامل - إلى ذلك بقوله: واستقبح الناس ذلك من فعله، واستعظموه. وخافه غيرهم [٩]. ولكن زنكي سرعان ما سعى إلى التعويض عن خطأه هذا وذلك بإصداره العفو عن العدد الأكبر من المحكوم عليهم بالإعدام، وتولية بعلبك لنجم الدين أيوب وهو الذي بذل جهوداً مشكورة في التوسط لهؤلاء الأمراء والدفاع عنهم [١٠]. وفي حصار زنكي لقلعة جعبر عام ٥٤١هـ، جرت مفاوضات بين الطرفين وافق فيها على تسلم مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عن القلعة وما إن وصله الرسول حاملاً

(١) زبدة حلب (٢٨٤/٢) عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٦.
(٣) العبر في خبر من غبر (١١٢/٤).
(٤) الاعتبار ص ١٥٧ عماد الدين زنكي ص ١٧٧.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٧.
(٦) مفرج الكروب (٤٢/١).
(٧) عماد الدين زنكي ص ١٧٩.
(٨) زبدة حلب (٢٧٣/٢) عماد الدين زنكي ص ١٧٩.
(٩) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٩.
(١٠) أخبار الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٩.

المبلغ المتفق عليه حتى ردّه من حيث جاء، بعد أن وردته أنباء تشير إلى أن القلعة قد أوشكت على السقوط [١]، وهو موقف يبرره تماماً حرصه على وحدة الجبهة الإسلامية إزاء أنانيات الأمراء الصغار وأطماعهم الذاتية [٢]. وأما ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يقول: ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد - قاصداً نفسه [٣]، فإنه لا يعني سوى عزمه على اتباع نظام المركزية في الإدارة، وتركيز السلطة بيد المسؤول الأعلى [٤].

*** هواياته:**

كان طبع زنكي الحاد، وعمله المتواصل من أجل تحقيق أهدافه السياسية والعسكرية، يستنفذان الكثير من وقته، ولا يتيحان له من الفراغ للراحة والتمتع إلا القليل القليل وفي هذه الفترات المتباعدة من التحرر من قيود العمل والمسؤولية، كان زنكي يسعى للترفيه عن نفسه وممارسة هواياته المفضلة التي كان الصيد والطراد أبرزها وأقربها إلى طبيعته الحادة [٥]. ويحدثنا ابن منقذ عن الجولات التي قام بها مع أمير الموصل وعن أنواع الصيد ووسائله وحيله ولنستمع إليه: شاهدت زنكي يوماً، وكانت له الجوارح الكثيرة، ونحن نسير على الأنهار، فيتقدم البازدارية [٦] بالبزاة ويطلقونها على طيور الماء، وتدق الطبول كجاري العادة، فتصيد - من طيور الماء - ما تصيد، وتخطئ ما تخطئ ووراءهم الشواهيق الجبلية على أيدي البازدارية، فإذا أخطأت البزاة أرسلوا الشواهيق على الطيور، ويستطرد ابن منقذ قائلاً: وشاهدته يوماً ونحن بظاهر الموصل... وبين يديه بازدار على يده باشق، فطار ذكرُ دراج [٧]، فأرسله عليه، فأخذه ونزل. فلما صار في الأرض - تمكن من الإفلات - فلما ارتفع لحقه الباز وأخذه ونزل به وقد ثبته [٨]. ثم يمضي ابن منقذ يقص علينا وجوها أخرى من الصيد، الذي كان يألفه زنكي ويهواه: فيقول: ورأيت زنكي وهو في صيد الوحش مراراً عديدة، فإذا ما نصبت الحلقة واجتمعت الوحوش داخلها - ثم حاولت الخروج - رموها وكان زنكي من أرمى الناس، فكان إذا دنا منه الغزال رماه فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح وشاهدته وقد ضربوا الخيام، فوصل الوحش إلى الخيام، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئاً كثيراً.. وشاهدته يوماً ونحن بسنجار. وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: ها هنا ضبعة نائمة؛ فسار زنكي، ونحن معه إلى واد هناك والضبعة نائمة على صخرة في سفحة، فترجل ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابه، فوقعت أسفل الوادي، فنزلوا وجاءوا بها بين يديه وهي ميتّة [٩]. وكان الملوك

(١) زبدة حلب (٢/٢٨٢٥ - ٢٨٣).
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٧٩.
(٣) زبدة حلب (٢/٢٨٤) عماد الدين زنكي ص ١٧٩.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٨٠.
(٥) المصدر نفسخ ص ١٨٠.
(٦) الاعتبار ص ١٩٢ - ١٩٣.
(٧) الدراج: طير من فصيلة الدجاج.
(٨) الاعتبار ص ١٩٢ - ١٩٣.
(٩) الاعتبار ص ١٩٢ - ١٩٣.

والأمراء إذا أرادوا التقرب إلى زنكي وكسب وده قدموا لـه هدايا مما اصطادوه من طيور وحيوانات شتى، وكان يرد عليهم - بدوره - بهدايا مما جنته يداه في جولات الصيد والطراد فهوداً وبزاة وصقوراً [١]، ولم يكن تعشق زنكي لسباق الخيل ومهارات الفروسية بأقل من تعشقه للصيد والطراد، فهذه هواية تصدر هي الأخرى عن الطبع الحاد والرغبة في قضاء أوقات الفراغ بما هو مجد في عصر كانت الفروسي فيه شارته الأولى[٢]. وفي فترات أخرى من فترات الفراغ المتباعدة كان زنكي يروح عن نفسه بالقيام منفرداً برحلات هادئة في نهر دجلة، متخففاً من أعباء ومهام إمارة شاسعة الأطراف يتربص بها الأعداء من كل جانب [٣].

رابعاً: سياسته الداخلية:

اهتم عماد الدين زنكي بضبط إمارته وكانت النظم التي سار عليها تعتبر امتداداً طبيعياً لما فصلناه في كتابنا عن السلاجقة وتحول الموصل من عهد ولاة السلاجقة (٤٨٩ - ٥٢١هـ) إلى عهد الأتابكة - لم يؤد إلى ظهور مؤسسات إدارية جديدة بالمرة على المنطقة بل إن معظم هذه المؤسسات ظل موجوداً في العهد الجديد مع إجراء بعض التعديلات واستحداث عدد قليل من المناصب التي اقتضتها الظروف السياسية، والعسكرية الجديدة وأقام زنكي تنظيماته الإدارية على أكتاف مجموعة الموظفين منحهم نوعاً من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونهم الإدارية، ولكن تحت إشرافه التام ومراقبته الدقيقة، وكان هؤلاء الموظفون يعملون في أربعة مجالات رئيسية هي:

* محافظة قلعة الموصل وسائر قلاع الإمارة. وكانت تسمى في كثير من الأحيان: النيابة، ويدعى متوليها (النائب).

* ولاية المدن والأعمال. * الوزارة. * الدواوين.

١ – نيابة الموصل أو محافظة القلعة:

أنشأ زنكي هذا المنصب حال دخوله الموصل في رمضان عام ٥٢١هـ وقد أطلقت المصادر عليه لقب النيابة أحياناً [٤]، ذرداية قلاع الإمارة أحياناً أخرى [٥]. ولما كانت كلمة دزدار الأعجمية تعني حافظ القلعة فمن الممكن تسمية هذا المنصب بالمحافظة وكان من مهام نائب الموصل أن يدير شؤونها وبقية أجزاء الإمارة نيابة عن زنكي، وأن يكاتب السلطان السلجوقي والخليفة العباسي عن أحوال الإمارة خلال تغيب الأمير [٦]، ومن مهامه جمع الضرائب وجباية الأموال، والإشراف المستمر على إحكام تحصينات الموصل وتعميق خنادقها، فضلاً عن الأعمال العسكرية المحصنة

(١) زبدة حلب (٢٦٣/٢).
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٨١.
(٣) المصدر نفسه
(٤) ذيل دمشق ص ٢٦٣ - ٢٧٠، عماد الدين زنكي ص ٢٣٤.
(٥) الباهر ص ٣٥، الروضتين في أخبار الدولتين (٧٦/١).
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ عماد الدين زنكي ص ٢٣٥.

كالدفاع عن المدينة[١]، والقيام بحملات توسعية بناء على أوامر زنكي [٢] وكان نائب زنكي بالموصل يشرف على إقامة الحدود وتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر ومعاقبة كل منهم حسب جريمته فضلاً عن مراقبة أبواب العاصمة والطواف في أحياء التجارة والمال وغير ذلك من الأعمال [٣]. وفي أغلب الظن أن السلطات الإدارية الواسعة التي كان نائب زنكي يمارسها كانت تتطلب جهازاً إدارياً واسعاً لتنفيذ الأوامر والقرارات [٤]، ومن أشهر نواب زنكي في الموصل:

أ – **نصير الدين جقر بن يعقوب ٥٢١ – ٥٣٩هـ:** هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب: نصير الدين وكان جقر أعظم أصحاب زنكي منزلة، وقد لعب دوراً هاماً في توليته على الموصل عام ٥٢١هـ [٥] واتبع جقر سياسة إدارية تضاربت المصادر في تحديد سماتها، بل إن المصدر الواحد لم يستطع تجنب هذا التناقض، فابن خلكان يصفه بأنه عرف بالعدل والإنصاف وتجنب الجور والظلم، ثم يشير إلى أن الطابع العام لسياسته وما اشتهر عنه هو الظلم وإنه كان: جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء مستحلاً للأموال [٦]، ويشير الفارقي إلى ما لقي الناس منه من شدة الجور والظلم والقتل والمصادرات والأقساط[٧] وكان ظلم جقر - كما يشير ابن خلكان - أحد أسباب المؤامرة التي دبرها أحد الأمراء ضده[٨]. وكان زنكي يقول عنه: إنه يخافني وما يخاف الله [٩]. ووضح عماد الدين خليل هذه التناقضات بقوله:.. بأن جقر اتبع سياسة شديدة قاسية ممتزجة بأسلوب من الرفق واللباقة أضفى على سياسته سمات العدل، ودفع بعض المؤرخين على عدم التأكيد على أي من الجانبين. ويظهر أنه كان قد اهتم إلى حد كبير بتجميع الأموال لحسابه وحساب أهله وأقاربه حتى أن زنكي لدى عودته إلى الموصل بعد مقتل جقر، استخرج ذخائره وصادر معظم ما لأولئك الأقارب [١٠]. إن أهم الأعمال التي أنجزها جقر خلال فترة نيابته هي إحكامه لأسوار الموصل. وحفره لخنادقها ودفاعه عنها ضد حصار الخليفة المسترشد العباسي عام ٥٢٧هـ الذي اضطر أخيراً إلى الانسحاب بسبب صمود جقر [١١] لقيادة جيوش زنكي لدى مهاجمة حصون الأكراد في الجهات الجبلية شمالي الموصل، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها [١٢]، كان يساعد جقر في حكم الموصل وال يعينه

(١) وفيات الأعيان (٣١٥/١، ٣١٦).
(٢) الباهر ص ٦٤ عماد الدين زنكي ص ٢٣٥.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٨.
(٥) الباهر ص ٣٤ - ٣٥.
(٦) وفيات الأعيان (٣١٥/١ - ٣١٦).
(٧) عماد الدين زنكي ص ٢٣٩.
(٨) وفيات الأعيان (٣١٦/١).
(٩) الاعتبار ص ١٥٧.
(١٠) وفيات الأعيان (٣١٦/١).
(١١) المصدر نفسخ (٣١٥/١ - ٣١٦).
(١٢) الباهر ص ٦٤ عماد الدين زنكي ص ٢٤٠.

هو[١]:

ب – زين الدين علي كجك بن بكتكين ٥٣٩ – ٥٤١هـ: يعتبر زين الدين علي كجك من أبرز رجال عماد الدين، وأحد قادته الكبار وقد اشترك معه في معظم حروبه في بغداد والشام ومناطق الأكراد وكان زين الدين رجلاً صالحاً، ذا أصل تركماني، لقب بكجك أي: القصير اللطيف وكان معروفاً بالقوة والشجاعة والإقدام رؤوفاً بالفقراء مواسياً للمرضى [٢]. اشتهر بالمحافظة على حسن العهد، وأداء الأمانة، ولم يمارس غدراً قط [٣]، وبلغ من تقواه أن قال عنه زنكي: إنه يخاف الله ولا يخافني [٤]، وقد رأى منه أهل الموصل كل خير [٥]، واستقام له الأمر، وحسنت بتدبيره الأحوال[٦]، وانتشر الأمن في المنطقة وازداد عمران البلاد [٧]، وتحققت بهذا آمال السكان [٨].

ت – نائب زنكي في حلب: أدرك زنكي أهمية حلب بالنسبة لأعماله العسكرية والسياسية في الشام فاتخذها قاعدة له في المنطقة واعتبرها عاصمته الإدارية هناك، وأقام فيها جهازاً إدارياً يشابه إلى حد ما ذاك الذي أقامه في الموصل، وجعل على رأس هذا الجهاز نائبه في حلب ليقوم في منطقة الشام بما يقوم به نائبه في الموصل في الجهات الشرقية من إمارته [٩] وقد جعل عماد الدين زنكي نائبه في حلب المسؤول الأعلى عن الجهاز الإداري هناك، وكان نائبه من كبار القادة العسكريين وكان يطلق عليه أحياناً اسم (مقدم زنكي في حلب) ومن أشهر نواب عماد زنكي في حلب سوار بن إبتكين قدم إلى حلب عام ٥٢٤هـ الأمير سوار الملقب بمسعود هارباً من دمشق إثر تدهور علاقته بأميرها، وتقدم لعرض خدماته على زنكي: فأكرمه هذا وشرفه وخلع عليه، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة وأعطاه ولاية حلب وأعمالها، واعتمد عليه في قتال الصليبيين، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور [١٠]، وكانت أعماله العسكرية هي التي أكسبته شهرة واستنفذت معظم أوقاته وجهوده بسبب قربة من المواقع الصليبية وهكذا كان الأمير سوار يقوم بشن هجمات سريعة خاطفة على قوات الصليبيين وقوافلهم وكان - أحيانا أخرى يمّد قوات زنكي بجند من عنده يقودهم بنفسه إن دعت الضرورة، كما كان يقوم بالدفاع عن مدينة حلب وأعمالها ضد هجمات الصليبيين، وفضلاً عن الجنود النظاميين الذين اعتمدهم. كان ينضم إليه أحياناً كثيرة تركمان المنطقة [١١]، طمعاً في الغنيمة

(١) عماد الدين زنكي ص ٢٤٠.
(٢) الاعتبار ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٣) الباهر ص ١٣٥.
(٤) الاعتبار ص ١٥٧ عماد الدين زنكي ص ٢٤١.
(٥) وفيات الأعيان (٣١٦/١) عماد الدين زنكي ص ٢٤٢.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ - ٢٨٢.
(٧) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ - ٢٨٢.
(٨) الباهر ص ٨٤ عماد الدين زنكي ص ٢٤٢.
(٩) زبدة حلب (٢٤٥/٢) عماد الدين زنكي ص ٢٤٥.
(١٠) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ - ٢٤١ عماد الدين زنكي ص ٢٤٦.
(١١) عماد الدين زنكي ص ٢٤٦.

أو حباً للجهاد. وقد استمر سوار في منصبه حتى مقتل زنكي عام ٥٤١هـ[١].

ث – ولاة (نواب زنكي على المدن والقلاع: يتضح مما سبق أنه كان لزنكي نائبان مركزيان هما: نائبه في الموصل الذي يشرف على الجهات الشرقية من الإمارة، ونائبه على حلب الذي يشرف على الجهات الغربية (أي القسم الشامي). وفضلاً عن هذين عين زنكي على المدن والأقاليم التي فتحها مجموعة من الولاة يطلق عليهم اسم النواب أو العمال [٢].

٢ – الوزارة:

إن الوزارة في عهد زنكي ليست سوى جزء من التطور العام لهذا المنصب طيلة عصور التاريخ الإسلامي تبلور منصب الوزير منُذ العصر العباسي الأول، وكان عمله في البداية يقتصر على تنفيذ أوامر الخليفة العباسي لذا سمي هذا النوع من الاستيزار بـ (وزارة التنفيذ) وبعد مرور فترة قصيرة ظهر نوع آخر، عندما فوض الخليفة وزيره لإدارة شؤون مملكته، أطلق عليه " وزارة التفويض " [٣] واستمر هذا المنصب يتأرجح بين التنفيذ والتفويض حسب مركز الخليفة أو السلطان الحاكم [٤] ومن أشهر وزراء عماد الدين زنكي:

أ – الكفرتوثي ٥٢٨ – ٥٣٦هـ: تجمع المصادر على أن أول من استوزره زنكي هو ضياء الدين أبو سعد بهرام بن الخضر الكفرتوثي [٥]، عام ٥٢٨هـ ويتضح من هذا أن السنوات السبع الأولى من حكم زنكي لم يكن اتخذ خلالها وزيراً وربما كان نائبه في الموصل هذا الذي يقوم بمهمام الوزير، مما جعل زنكي يستغني عن هذا المنصب طيلة تلك المدة، وتذكر المصادر بالقول بأن الكفرتوتي كان: مشهوراً، بحسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد [٦]، وقد قدم مع زنكي إلى حلب، مما يشير إلى أنه لم يكن مستقراً في الموصل بشكل دائم [٧].

ب – أبو الرضا بن صدقة ٥٣٦ – ٥٣٨هـ: بقي الكفرتوثي في منصبه كوزير طيلة اثنى عشر عاماً، وتوفي في شعبان عام ٥٣٦هـ [٨]، فاستوزر زنكي بعده جلال الدين أبا الرضا محمد بن صدقة [٩]، ولكنه لم يستمر في منصبه طويلاً حيث عزل عام ٥٣٨هـ لأسباب أوجبت ذلك ودعت إليه[١٠].

ج – أبو المحاسن العجمي: يذكر ابن القلانسي أن زنكي ألقى القبض عام ٥٣١هـ على وزيره

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٦
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٦.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٣ وفيات الأعيان (٢٢٨/٤).
(٦) زبدة حلب (٢٥٤/٢) عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(٧) عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٥، عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(٩) عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(١٠) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٧، عماد الدين زنكي ص ٢٦٣.

أبي المحاسن علي بن أبي طالب العجمي واعتقله في قلعة حلب، حيث بقي هناك بسبب مصادرته للأموال وانكسار المعاملات التي عجز عن القيام بها: وتأدية ما عليه من التزامات مالية [١]، ولم تقدم المصادر عن ترجمة العجمي شيئاً يستحق الذكر [٢].

س – جمال الدين الأصفهاني: وأطنبت المصادر في وصف أخلاق جمال الدين، مركزة الأضواء على كرمه العجيب، تلك الأخلاق التي قربته من زنكي، وجعلته محبوباً ومشتهراً في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي، ومنحته لقب الجود لكثرة جوده، كما دفعت أبناء زنكي - فيما بعد - إلى الاعتماد عليه في إدارة إمارتهم [٣]، وقد أطلقت بعض المصادر عن جمال الدين الأصبهاني وزير صاحب الموصل [٤]، وذكرت بعض المصادر أن زنكي جعل جمال الدين: مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه[٥]، ويقول ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من جمال الدين الوزير في أيام زنكي من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحافظة - أي التحقيق - فيها، ما يدل على تمكنه من الكفاية وتشير المصادر إلى أن زنكي عول على جمال الدين في الفترة الأخيرة من حكمه، في الإشراف على ديوانه، وزاد راتبه [٦]، ومكنه في منصبه [٧]، ولم يحاول جمال الدين أن يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص، بل كان يأخذ ما يكفي لمعيشته ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي [٨]، مما زاد من اعتماد الأخير عليه وثقته به، فمكنه من أصحاب [٩] ديوانه وهكذا كان جمال الدين يتمتع بسلطان عملية واسعة، وخاصة في مسائل الإشراف على الديوان والمسائل المالية، فقد شغل جمال الدين منصباً خطيراً، وقد أطلقت معظم المصادر على جمال الدين لقب (وزير) [١٠].

ش: الوزير مروان بن علي بن سلامة: كان وزير عماد الدين زنكي في الموصل مروان بن علي بن سلامة الطنزي نسبة إلى (طنزة) من ديار بكر وكان مروان هذا قد ورد بغداد وتفقه على الغزالي والشاشي، ثم عاد إلى بلده ليدبر أمور الوزارة حتى وفاته عام ٥٤٠هـ [١١].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٦٤.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦ عماد الدين زنكي ص ٢٦٥.
(٤) الباهر ص ١١٨ - ١١٩ عماد الدين زنكي ص ٢٥٩.
(٥) الباهر ص ١١٨ - ١١٩ وفيات الأعيان (٢٢٨/٤).
(٦) عماد الدين زنكي ص ٢٦٠.
(٧) تاريخ آل سلجوق ص ١٩٢ - ١٩٣ عماد الدين زنكي ص ٢٦٠.
(٨) عماد الدين زنكي ص ٢٦٠.
(٩) المصدر نفسه ص ٢٦٠.
(١٠) المصدر نفسه ص ٢٦٠.
(١١) طبقات الشافعية (٢٩٥/٧) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٥٥.

٣ – الموظفون ونظام التوظيف:

اهتم عماد الدين زنكي بأمر الوظائف والموظفين اهتماماً كبيراً كي يستطيع أن يسيّر أمور دولته بشكل منظم، وكي يجنب جهازه الإداري الهزات التي كثيراً ما تعرقل سير الأمور وقد طبق زنكي مبادئ إدارية منها:

أ – مبدأ تكافؤ الفرص في المجال الإداري: كي يحقق هدفه آنف الذكر ويضع يديه على الموظفين الأكفاء فكان: يتعهد أصحابه ويمتحنهم فلا يرفع أحداً فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه [١]، كما كان يجعل كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه.

ب – الثقة على قدر المعرفة: فكان يولي موظفيه ثقته على قدر ما يعلم منهم كي يشعرهم بالأمن والاستقرار وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه.

ج – مبدأ كفاءة الشخص: فقد جعل من كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه [٢].

س – ثقته في موظفيه: على قدر ما يعلم منهم. كي يشعرهم بالأمن والاستقرار، وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه، فكان: قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغّير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغيّر، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا معه أخيراً، فلهذا كانوا ينصحونه، ويبذلون نفوسهم له[٣]، وهذا هو الذي دعا جمال الدين الوزير إلى وصف زنكي بأنه كان: متمكناً قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ولا يتلون بأقوال أصحابه مما دفع أصحابه إلى حفظه [٤].

ش – انتقاء الموظفين: كان زنكي ينتقي موظفيه من الرجال ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية [٥] فإذا ما أضيف إلى ذلك توسيعه في رواتب موظفيه [٦] أدركنا مدى إخلاص هؤلاء له ولعملهم، ومدى سير الأمور الإدارية في ولايته سيراً طبيعياً. وخير مثل على ذلك موظفه الكبير جمال الدين الأصفهاني الذي أظهر في أيامه من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والتحقيق فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية، فلما وزر جمال الدين نفسه ـ لقطب الدين مودود بن زنكي، قلّت كفايته وصار يهمل بعض الأمور وعندما سأله أحد الموظفين عن السبب في ذلك أجاب: ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما هي أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه [٧].

---

(١) الباهر ص ٧٩ عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٢) الباهر ص ٦٣ عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٤) الباهر ص ٨٢ ـ ٨٣ عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٥) أخبار الروضتين (١١٤/١).
(٦) عماد الدين زنكي ص ٢٦٧.
(٧) الباهر ص ٨٢ ـ ٨٣ عماد الدين زنكي ص ٢٦٧.

ع – **المركزية في الحكم**: يقول بعض الباحثين: كان زنكي يؤمن بما سمى اليوم (الدكتاتور العادل) ويسعى إلى تطبيع هذا المبدأ في مجال الإدارة، فكان يقول: ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد - يعني نفسه [١] ويقول عماد الدين خليل: كلمة ظالم تعني السيطرة الفردية المركزية في الحكم، وعدم السماح للموظفين الآخرين بالارتفاع إلى مستوى مسؤوليته في الإدارة، ومشاركته في الحكم ولهذا السبب - نفسه - لم يكن زنكي يسمح لموظفيه وعماله بظلم أحد من أفراد الرعية أو التعرض لهم بأي أذى. وقد عاقب عز الدين الدبيسي - وهو من أكابر أمرائه - لأنه سلب أحد يهود جزيرة ابن عمر بيته [٢]، وعاقب أحد ولاته بسمل عينيه لتعرضه لامرأة [٣] فخاف الولاة وانزجروا [٤]. وعجز القوي عن ظلم الضعيف [٥].

ك – **نهيه عن أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك**: كان ينهي أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك قائلاً لهم: ما دامت البلاد بأيدينا فأي حاجة بكم إلى الأملاك، فإن الإقطاعات تغني عنها، فإن خرجت البلاد من أيدينا، فإن الأملاك تذهب معها ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم [٦]. وقد لخص زنكي بهذا التصريح سياسته العادلة إزاء الرعية، وموقفه من موظفيه كما أوضح مفهومه عن الحاكم المستبد العادل، وهذا هو الذي دفع عدداً من المؤرخين إلى التأكيد على سياسته العادلة لدى استعراضهم لسيرته [٧]، وأنه كان يتقبل آراء الرعية وانتقاداتهم ويروي ابن واصل أن زنكي كان يمارس الظلم في بدء أمره، فسمع في إحدى الليالي شخصاً يغني بيتين من الشعر عن العدل فبكى وتبدّلت نيته في الظلم، وألزم نفسه بالعدل منُذ ذلك اليوم [٨]، كما يشير ابن العديم إلى أن أهل حران امتدحوا سياسة زنكي العادلة معهم ثم يقول: وبلغني أنه لا يتجاسر أحد من رعيته، كائناً من كان، أن يظلم أحداً من خلق الله [٩]. وفي العموم كانت سياسته إلى العدل أميل وخالطها شيء من الظلم، وحرص على التخلص منه.

(١) زبدة حلب (٢٨٤/٢) عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٢) الباهر ص ٧٧ عماد الدين زنكي ص ٢٦٧.
(٣) الباهر ص ٨٤ عماد الدين زنكي ص ٢٦٧.
(٤) مرآة الزمان (١٩٠/٨).
(٥) زبدة حلب (٢٨٤/٢).
(٦) الباهر ص ٧٧ عماد الدين زنكي ص ٢٦٨.
(٧) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٦٨.
(٨) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٦٨.
(٩) زبدة حلب (٢٨٤/٢) عماد الدين زنكي ص ٢٦٨.

٤ – الدواوين:

كان ديوان زنكي يقاس بدواوين السلاطين السلاجقة لكثرة التجميل ونفاذ الأمر، وعظم الحاشية والخراج [١] وهذا يؤكد أهمية ذلك الديوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتساع والنمو وكثرة الموظفين وضخامة المصروفات بحيث أن أي مراجع كان يقصده كان يجد من توفر موظفيه عليه ونظرهم في مصالحة ما يجعله - كأنه في أهله [٢].

٥ – الأمن الداخلي والإعمار:

استطاع زنكي، بإدارته الحازمة وضبطه للأمور [٣] وعدالته وبمساعدة أجهزة الجيش والبريد أن يحقق نتائج هامة في إمارته في مجال إقرار الأمن والقضاء على المفسدين ونشر العمران في البلاد، حيث يشير ابن العديم إلى أن البلاد عمرت في أيام زنكي: بعد خرابها وسادها الأمن بعد الخوف، وكان زنكي لا يبقي على مفسد [٤] وقد كان الأمن مضطرباً في الموصل نفسها خلال الفترة التي سبقت حكم زنكي، ويورد ابن الأثير نصاً يلقي ضوءاً على الموضوع، رغم ما فيه من مبالغة، يقول فيه: كان الناس لا يقدرون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن [٥] العمارة وكان معظم مناطق البعيدة عن المركز خربة لا عمران فيها ولا أمن وسرعان ما ساد العمران هذه المناطق لدى مجيء زنكي [٦]، بفضل حمايته للبلاد ومنعه المفسدين وكفه أيدي الأقوياء [٧]. وكان لانتشار الأمن في المنطقة أثر واضح في زيادة عدد السكان في إمارة زنكي [٨]، كما غدت الموصل ملجأ للمهاجرين من بغداد بسبب فقدان الأمن هناك واشتداد الضوائق الاقتصادية [٩]. وبالإمكان معرفة الدور الذي لعبه زنكي في مجال الأمن بتتبع ذلك في الأيام التي أعقبت اغتياله حيث اضطربت الأعمال، واختلت المسالك، وانطلقت أيدي الحرامية في إفساد الأطراف والعبث في سائر النواحي [١٠].

وعندما كان زنكي يسيطر على المدن، لم يكن يترك جنوده يتحكمون بمقدراتها ويسيئون إلى أهاليها وينشرون الرعب والفوضى في ربوعها، بل كان سرعان ما يعين عليها والياً من قبله، كي تكون الكلمة والسلطة بأيدي رجال مدنيين، من أجل إحلال الأمن في المدينة وإعمارها [١١]، وكان لا يسمح - أبداً - لجنده - خلال التحركات والعمليات الحربية بأن يعتدوا على الفلاحين بنهب أو تخريب

(١) الباهر ص ٨٣ عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.
(٣) الباهر ص ١٣ عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.
(٤) زبدة حلب (٢٨٤/٢) عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.
(٥) الباهر ص ٧٧ عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.
(٦) الباهر ص ٧٧ - ٧٨ عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٧) المصدر نفسه ص ٧٧.
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٩) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(١٠) كتاب الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(١١) عماد الدين زنكي ص ٢٧١.

مزارعهم فكان العسكر يمشي خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ - ولو مقداراً ضئيلاً من التبن - من فلاح إلا بثمنه، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية وإن تعدى أحد صلبه [١]، ومراراً عديدة، وفي مناطق مختلفة، والهدم والتسلط العسكري، ففي عام ٥٢٨هـ - مثلا قام بالقضاء على أعمال النهب والفوضى التي كان يقوم بها بعض أكراد شرقي الموصل ضد الفلاحين [٢] وفي عام ٥٣٣هـ استولى على منطقة شهرزور التركمانية: فأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان [٣]. وفي عام ٥٣٧هـ استطاع أن يستولى على عدد من حصون الأكراد شمالي الموصل وأن يقضي على أعمال الفساد في المنطقة [٤]. وفي عام ٥٣٩هـ قام عسكره - إثر استرجاع الرها من الصليبيين - باستباحة المدينة خلال الأيام الأولى من الفتح: فلما دخل زنكي البلد أعجبه منظره، فأسف لمثله من الخراب، ورأى أن تخريبه وإخلاءه من أهله غير مستحسن من مثله فأمر بإعادة ما أخذ من سبي وأموال، فردوا عن آخرهم، وعاد البلد عامراً آهلاً آمناً [٥]، ثم أصدر أوامره بإعادة إعمار الرها [٦]، فأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان[٧]. ولا أدل على حب عماد الدين زنكي للإعمار ورفقه بأهالي المناطق المفتوحة من تعيينه نجم الدين أيوب واليا على بعلبك عام ٥٣٤هـ، وهو الذي توسط لدى زنكي في العفو عن أمراء بعلبك الذين حكم عليهم بالإعدام، فأجابه زنكي إلى طلبه وولاه على بعلبك وأقطعه ثلثها [٨].

٦ – سياسة الترحيل:

اتبع زنكي ما يمكن تسميته بـ (سياسة الترحيل) أي نقل جماعة من مكان إلى مكان آخر لتحقيق غرضين.

أولهما: التمكين لحكمه في بعض المناطق التي استولى عليها.

وثانيهما: اتخاذ بعض هذه الجماعات كقوات حاجزة بين ممتلكاته وبين مناطق الأعداء، ففي عام ٥٣٦هـ استولى على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات، ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل ورتب أصحابه فيها [٩]، وأغلب الظن أن آل مهراش هم حكام (الحديثة) الذين كانوا يهددون سيطرة زنكي على المدينة مما اضطره إلى إبعادهم وفي عام ٥٤٠هـ وعندما أعلن أرمن الرها العصيان ضد زنكي واستطاع نائبه زين الدين كجك أن يقضي على المحاولة، أمره زنكي بإعدام قادة

(١) زبدة حلب (٢٨٣/٢ - ٢٨٤) عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٣) الباهر ص ٥٧ - ٥٨ عماد الدين زنكي ص ٢٧٢.
(٤) الباهر ص ٦٤ مرآة الزمان (١٩٠/٨) عماد الدين ص ٢٧٢.
(٥) الباهر ص ٦٩ عماد الدين زنكي ص ٢٧٢.
(٦) زبدة الحلب (٢٧٩/٢ - ٢٨٠).
(٧) الباهر ص ٥٧ - ٥٨ عماد الدين زنكي ص ٢٧٢.
(٨) كتاب الروضتين (٨٦/١ - ٨٧).
(٩) المنتظم (١٠٢/١٠) عماد الدين الزنكي ص ٢٧٣.

المؤامرة ثم قام بترحيل بعض الأرمن من المدينة، وأحل محلهم ثلاثمائة عائلة يهودية تخلصاً من خطر وجودهم [١] وخلال فترة مبكرة من حكم زنكي قام بنقل طائفة من التركمان تدعى (الإيوانية) مع أميرهم ياروق أرسلان إلى الشام، وأسكنهم في ولاية حلب، وأمرهم بجهاد الصليبيين، ومنحهم الحق في تملك كل ما استولوا عليه من البلاد العائدة لهؤلاء وقد استطاعت هذه الطائفة - فعلاً - أن تسترد من الصليبيين الكثير من الأراضي المحيطة بحلب حيث بقيت بأيديهم إلى سنة ٦٠٠هـ [٢].
وكان ياروق مقدماً كبيراً وإليه نسبت الطائفة الياروقية من التركمان. وقد حققت هذه الطائفة - فضلاً عن أعمالها الحربية - نتائج عمرانية، إذ بنى ياروق وأتباعه على شاطئ نهر قويق المار بحلب. عمائر كثيرة عرفت باليا‌روقية واشتهرت هناك[٣]، وقد استفاد زنكي في توطيد الأمن الداخلي إلى حد كبير من جهاز استخبارته الدقيق [٤] ومن البريد، ويمكن القول بأن جند زنكي وحرسه وحاميات المدن قاموا - كذلك - بدور تنفيذي هام في هذا المجال [٥].

خامساً: النظم العسكرية: عند عماد الدين زنكي:

١ – الجيش:

كانت مؤسسة الجيش هي القوة الضاربة التي استخدمها زنكي للقضاء على الإمارات المحلية لكي يوحدها في جبهة إسلامية متماسكة ليستطيع مجابهة الصليبيين، وقد اعتنى بجيشه بحيث أصبح قوياً متماسكاً ومن الأمور المتعلقة بالجيش التي اهتم بها زنكي:

أ – ديوان الجيش: نظم زنكي ديوان الجيش، ليقوم بالإشراف على أمور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم وأعطياتهم بانتظام [٦] وجعل على رأس هذا الديوان موظفاً أعلى يطلق عليه (أمير حاجب)[٧]، وكان عمله أن ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمراجعة النائب، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند، وما ناسب ذلك [٨]، كما كان ينظر في مخاصمة الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك [٩]، وذكر ابن الأثير أنه: كان لزنكي جماعة كثيرة من الخراسانية في الركاب أي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للأمير -، لهم الجامكيات [١٠] الوافرة، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة، ففي بعض السنين تأخرت (رواتبهم) تأخراً يسيراً، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم زنكي

(١) عماد الدين زنكي ص ٢٧٣.
(٢) الباهر ص ٨٠ عماد الدين زنكي ص ٢٧٣.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٢٧٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٤.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٧٤.
(٦) الباهر ص ٨٣ عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(٧) الباهر ص ٨٣ عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(٨) صبح الأعشى (١٩/٤) عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(٩) الخطط (٢١٩/٢) عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(١٠) الجامكيات: هي الرواتب العامة.

مجتمعين، فعلم أنهم يشكون شيئاً، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له فقال لهم: أشكوتم إلى الديوان؟ قالوا: لا، قال: فهل ذكرتم حالكم.. للأمير حاجب؟ قالوا: لا، قال: فلأي شيء أعطي الديوان مائة ألف دينار وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها؟.. كان عليكم أن تشكوا حالكم إلى الديوان، فإن أهملوا أمركم قلتم (لأمير حاجب)، فإن أهمل أمركم شكوتم الجميع إليّ حتى أعاقبكم على إهمالكم، وأما الآن فالذنب عليكم. ثم أمر بتأديبهم وقطع (رواتبهم)، حتى شفع فيهم بعض الأمراء فعفا عنهم. ثم أحظر موظفي الديوان وأمير حاجب وقال لهم: إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي، ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي، وبهم من الحاجة إلى النفقات في أسفارهم ما تعلمونه، فكيف يكون حال من بعد عني؟ وأنكر عليهم ذلك، فخرجوا من عنده وفرقوا في الأجناد من أموالهم إلى حين وصول (رواتبهم) فأخذوا عوض ما أخرجوه [١]، ويعلق ابن الأثير على هذه الحادثة قائلاً بأن زنكي بهذا الإجراء: أصلح الجند لطاعة الديوان وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره [٢].

ب – أمير حاجب زنكي: تولى صلاح الدين بن أيوب الياغسياني منصب أمير حاجب لدى زنكي، ويرجع ذلك في تولية الأخير على الموصل إذ كان أحد عضوين في الوفد الذي توجه إلى بغداد عام ٥٢١هـ لمفاوضة المسؤولين حول إقرار الوضع في المنطقة وقد وعده زنكي بتوليته منصب أمير حاجب حالما يستقر في الموصل فلما دخلها عام ٥٢١هـ ولاه هذا المنصب الهام [٣]، وقد ظل الياغسياني يلازم زنكي في حله وترحاله، واعتمد عليه هذا في مهامه العسكرية، وجعله أحد قواده الكبار. وكلفه بقيادة جيشه في عدد من المهام والمعارك العسكرية [٤]، وتقدم لدى زنكي بالمناصحة وسداد التدبير. وحسن السفارة وصواب الرأي [٥]، ولذلك لم يعترضه أو يقله من منصبه طيلة فترة حكمه [٦].

ج – تنظيم الجيش وعناصره: تعتبر نظم عماد الدين زنكي امتداد لنظم السلاجقة من جهة وأساس للنظم الأيوبية والمملوكية من جهة أخرى ومن العناصر التي كانت تشكل جيش زنكي، الخراسانيون، والتركمان الذين كانوا يشكلون أعداداً كبيرة، إذ يشير ابن القلانسي إلى أن زنكي عندما حاصر الرها عام ٥٣٩هـ كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها (أي على الرها) وأداء فريضة الجهاد، فوصل إليه منهم الخلق الكثير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات [٧]، وقد استفاد زنكي من التركمان لجهاد

(١) الباهر ص ٨٣ عماد الدين زنكي ص ١٩٣.
(٢) الباهر ص ٨٣ عماد الدين زنكي ص ١٩٣.
(٣) الباهر ص ٣٥ عماد الدين زنكي ص ١٩٥.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٩٥.
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٩٥.
(٧) الباهر ص ٢٧٩ عماد الدين زنكي ص ١٩٧.

الصليبيين بالدرجة الأولى. وقام بنقل طائفة من التركمان الإيوانية مع أميرهم (اليارق) إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنفذوه من البلاد التي لهم.. فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال ويراوحونهم ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى سنة ٦٠٠هـ. وقد استفاد الأمير سوار بن إيتكين التركماني، نائب زنكي في حلب، من التركمان في غارته ضد الصليبيين في شمالي الشام واستطاع أن يحقق بواسطتهم انتصارات عديدة [١]، وكان التركمان ينتشرون في معظم أنحاء الشام وبخاصة مناطق الفرات وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة [٢]. وكان زنكي يمضي إلى الفرات لجمع التركمان قبل القيام بمعاركه المهمة، إذ كان هؤلاء بإعدادهم الضخمة ومرانهم في الحرب، وشجاعتهم، يشكلون أهم عنصر في جيشه [٣] وجاءت اشارات متعددة عن (الحلبيين) كقوة عسكرية اشتركت في معارك عديدة ضد الصليبيين في شمالي الشام بقيادة الأمير سوار، وقامت بدور أساسي في الدفاع عن حلب وبعض المدن الأخرى القريبة، عند هجوم الأمبراطور البيزنطي المتحالف مع الصليبيين على هذه المنطقة عام ٥٣٢هـ [٤]، كما قام الحلبيون بدور هام في فتح الرها عام ٥٣٩هـ جنباً إلى جنب مع الخراسانيين، إذ كان في (الحلبيين) أيضاً من هو " عارف بمواضع النقوب "، فنقبوا عدة مواضع مع الخراسانيين، وأشعلوا فيها النار مما أدى إلى انهيار بعض أجزاء السور ودخول المسلمين إلى الرها [٥]. وقد كان هؤلاء الحلبيون، من سكان حلب الأصليين، أي من العرب، بدليل ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يجبر فلاحي حلب على الالتحاق بجيشه في أوقات القتال [٦]، ويظهر أن هؤلاء كانوا يتركون الجيش ويعودون إلى أعمالهم الزراعية بعد انتهاء القتال، ولا ريب أنهم كانوا يتقاضون أجوراً على اشتراكهم في المعارك، سواء كانت أرزاقاً معينة، أم ما يحصلون عليه من الغنائم، وقد ذكر ابن واصل أن زنكي رحل إلى أرض حماة عام ٥٣٣هـ واستصحب من أهلها تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب [٧]. أي للقيام بمهمة الحشم في خدمة الجيش وأمرائه في حلهم وترحالهم، فضلاً عن حراسة زنكي الخاصة، مما يشير إلى أن هذا اعتمد على أهالي الشام في كثير من الأمور الحربية [٨] واعتمد جيشه على عناصر أخرى كالبدو والأكراد [٩].

ـ **عدد جيش زنكي**: ويظهر مما سبق أن عدد جيش زنكي لم يكن ثابتاً، بل كان عرضة للزيادة والنقصان بما ينضم إليه من المتطوعين من حين لآخر. وقد حاول زنكي أن يضمن وجود مورد عسكري بشري ثابت، ففرض التجنيد الإجباري على بعض المناطق القريبة من مواطن الخطر، ولذلك كان يلزم أهل حلب بجمع الرجالة للقتال والحصار فإن كان ذلك في جهاد الكفار، فقد

(١) عماد الدين زنكي ص ١٩٧.
(٢) زبدة حلب (٢٦٤/٢ - ٢٦٨).
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ عماد الدين زنكي ص ١٩٨.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٩٨.
(٥) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٦) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٧) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٨) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٩) المصدر نفسه ص ١٩٩.

كان يجلب عليهم ذلك ولـه إلزامهم به [١].

ـ **معسكرات عماد الدين زنكي**: هنالك إشارات محدودة عن معسكرات الجند، ففي شتاء إحدى السنين قدم زنكي إلى جزيرة ابن عمر، فنزل بالقلعة، وعسكر جنده في الخيام خارج المدينة [٢]، الأمر الذي يشير إلى وجود معسكرات غير ثابتة في الحالات الطارئة، وأما في الحالات الدائمة، فقد كان زنكي يقيم حامية عسكرية في كل مدينة أو حصن يفتحه بعد أن يقطع أراضيها لأمراء الحامية وجنودها[٣] وهذا يؤكد وجود معسكرات ثابتة في مختلف المناطق التابعة لزنكي، ولم تحدد المصادر فيما إذا كانت سكنى الجند داخل القلاع أم خارجها [٤]؟

– **استخدام الخيل في جيش عماد الدين**: وردت إشارات عديدة عن اهتمام قوات عماد الدين زنكي بالخيل واستخدامها في مختلف الحروب. وفي الهجمات السريعة، وقد ذكر أسامة بن منقذ بعض اللمحات عن الخيول في عهد زنكي فكان الفارس يلبس الزردية، أو الكزاغند (أي الدرع). والخوذة ويقاتل بالسيف أحياناً وبالدبوس أحياناً أخرى [٥]. وقد جرى التنافس بين قوات زنكي لاقتناء الخيول الحسنة [٦] وكان للأمراء ركائبيون وإصطبلات خاصة لخيولهم [٧] ويشير ابن العديم إلى استخدام الخيل في معارك عام ٥٣٢هـ ضد الروم والصليبيين [٨].

وقد اعتمد الأمير سوار نائب زنكي في حلب على الخيول في غاراته التي شنها ضد الصليبيين [٩]. وقد اعتمد الأمير سوار نائب زنكي في حلب على الخيول في غاراته التي شنها ضد الصليبيين [١٠]. وهنالك إشارات مختصرة عن تنظيم النقل في جيش زنكي، إذ يشير ابن منقذ إلى استخدام زنكي للبغال[١١]. ويظهر أن حروبه الجبلية دفعته إلى ذلك، كما استخدمت الإبل في مناطق الجزيرة المستوية في الظروف التي تطلبت السرعة [١٢].

س – **استدعاء الجيوش وأساليب الحرب**: قبيل إعلان الحرب كان زنكي يستدعي قوات من المتطوعين لتنضم إلى جيوشه النظامية المجهزة [١٣]. فعندما عزم على فتح الرها عام ٥٣٩هـ كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها، وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم الخلق الكثير

(١) عماد الدين زنكي ص ١٩٩.
(٢) الباهر ص ٧٦ - ٧٧، كتاب الروضتين (١١٠/١).
(٣) عماد الدين زنكي ص ٢٠٠ الباهر ص ٦٦، ٦٩.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٠٠.
(٥) الاعتبار ص ٩٨ عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(٦) عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٠١.
(٨) زبدة حلب (٢٦٢ - ٢٦٧).
(٩) عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(١٠) عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(١١) الاعتبار ص ٥٩ - ٦٠ عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(١٢) الباهر ص ٦٨ عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(١٣) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.

(١). كما كان يمر - في طريقه إلى الحرب ببعض مدن إمارته ويجمع منها الجند ليضيفهم إلى قواته كما فعل مع أهالي حلب (٢)، وحماة (٣) وكان الجهاد ضد الصليبيين أحد الدوافع المهمة في اشتراك المتطوعين في حروب زنكي وخصوصاً التركمان، كما كانت الرغبة في الغنائم والخوف من سلطة زنكي (٤)، من الدوافع الأخرى لذلك. وكانت معظم المعارك التي خاضها زنكي عبارة عن هجمات ومحاصرة للحصون الكثيرة المنتشرة في منطقة الجزيرة والشام، وأما المعارك المفتوحة فإنها كانت أقلّ من حروب الأسوار بشكل ملحوظ ولذلك قلَّت الإشارات عن الأساليب التي اتبعت فيها (٥).

* **وكان للجواسيس أهمية كبيرة في المعارك التي خاضها زنكي**، وكانوا ينتشرون في مناطق العدو، ويطلعون أميرهم على تحركاته وإمكانياته لكي يكون على بينة من الأمر، وكان زنكي يحدد موقفه الحربي أحياناً بناء على ما يقدمه هؤلاء من معلومات (٦)، ومن ثم يتجه هو أو أحد قواده على رأس الجيش لفرض الحصار، فإذا ما استدعت الظروف السرعة في السير اتخذ من الوسائل ما يكفل ذلك، ففي عام ٥٢٨هـ على سبيل المثال، توجه إلى (خلاط) وأراد الوصول إليها بسرعة، فسلك طريقاً عبر الجبال عبر الطريق المسلوك وكان جنده يستريحون، كل واحد في موضعه دون خيام (٧). وعندما توجه لحصار الرها عام ٥٣٩هـ استعان على السرعة بركوب النجائب (أي الإبل صغيرة العمر) (٨).

* **حروب الأسوار**: قدمت بعض المصادر تفصيلات عن أساليب الأسوار، ففي حصار الرها، تقدم زنكي - أولاً - إلى أهل الحصن بتسليمه له دون أن يضطر إلى تخريبه، فلما رفضوا أمر المنجنيقات بالضرب: وقاد الشجعان لنزاله على شكل زحوف مستمرة لقتال الحامية وفي الوقت نفسه، كان النقابون: العارفون بمواضع النقوب: يعملون على نقب بعض المناطق الواقعة تحت الأبراج وبعد ذلك وضعوا فيها الأخشاب وأحرقوها فسقطت الأبراج واحترق السور واندفع جند زنكي إلى داخل الحصن (٩).

* **أسلوب الاشتباك**: اتبع زنكي أسلوب الاشتباك مع حامية الحصن حالماً بفسح المجال بذلك، إذ تبدأ المنجنيقات أولاً - بضرب الأسوار، وما إن تحدث بعض الفتحات حتى يقوم عدد من جنده بهجوم سريع على تلك المناطق والاشتباك مع الحامية، فإذا ما قضوا على المدافعين فتحوا الطريق أمام الجيش للدخول إلى الحصن والاستيلاء عليه (١٠).

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٣) مفرج الكروب (٨٤/١) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٤) الباهر ص ٦٨ عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٦) مفرج الكروب (٩٣/١) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٧) الاعتبار ص ٨٨ - ٨٩.
(٨) الباهر ص ٦٨.
(٩) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩.
(١٠) الاعتبار ص ١٥٥ عماد الدين زنكي ص ٢٠٣.

* **الناحية التموينية**: كان عماد الدين زنكي يؤكد في حصاره للحصون على الناحية التموينية، فيفرض حصاراً اقتصادياً على الحصن. فضلاً عن الحصار العسكري [١]، كما كان يؤكد على إثارة حماسة الجند بأن يشترك هو نفسه في الهجوم على الأسوار كما حدث في معركتي عقر الحميدية عام ٥٢٨هـ [٢] والرها عام ٥٣٩هـ[٣].

* **الحروب المفتوحة**: فقد اتبع زنكي أسلوب الحرب المفتوحة، حيث تقسم القوات إلى عدة مجموعات على رأس كل منها أمير: ميمنة، قلب، ميسرة، مقدمة، مؤخرة. وقد ظهرت براعة زنكي وقواده في استخدام الأساليب المختلفة في القتال كنصب الكمائن [٤] وفي الحالات التي كانوا يرون فيها أن من الخطورة الدخول بمعارك مفتوحة مع العدو، إما لقلة عددهم، أو لعدم ملائمة الظروف العسكرية لهذا النوع من القتال، في هذه الحالات، كان زنكي وقواده يلجأون إلى شن الغارات على معسكرات العدو والانسحاب بسرعة وكانوا يستهدفون من ذلك إقلاق تلك المعسكرات ونشر الخوف والفوضى في صفوفها وذلك بما يحدثونه في أطرافها من قتل واختطاف ونهب وتخريب، مما يؤدي أيضاً إلى اضطراب في تموين العدو، وهو عامل هام لإضعافه، وقد حققت هذه الأساليب انتصارات عديدة لزنكي ورجاله [٥]. وكان زنكي - أحياناً أخرى - يمارس ضغطه الاقتصادي ضد أعدائه عن طريق القيام بعمليات النهب والتخريب في المناطق التي تمد حصون هؤلاء بالتموين، كما حدث في منطقة حمص في السنوات التي سبقت الاستيلاء عليها عام ٥٣٢هـ [٦] وفي حصاره لدمشق عام ٥٣٤هـ حيث أحرق عدة قرى من المرج والغوطة وشن الغارات على حوران وأعمال دمشق للنهب والتخريب [٧].

ع – **الأسلحة التي استخدمها عماد الدين زنكي في جهاده**: فقد ورد ذكر منها كالدبوس وهو آلة من حديد ذات أضلاع والرماح، والسيوف، والقوس والسهم والنشاب والمنجنيقات والدبابة والكبش والقلعة المتحركة والتي كانت تستخدم لنقل الجند والمعدات الحربية إلى الأسوار لكي تحميهم من سهام الأعداء ونيرانهم [٨]، كما استعمل جند زنكي النار العادية لحرق الأسوار بعد نقبها وملئها بالخشب [٩] وبلغت أسلحت زنكي من الكثرة في إحدى المعارك بحيث قال عنها الشاعر:

ظننا البر بحراً من سلاح [١٠]:

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٠٣.
(٣) مفرج الكروب (٩٣/١ - ٩٤).
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩ عماد الدين زنكي ص ٢٠٤.
(٥) الباهر ص ٥٥ - ٥٦ مفرج الكروب (٧٨/١، ٧٩).
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٠٤.
(٧) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٠٥.
(٨) تاريخ المماليك ص ٢٧٦ عماد الدين زنكي ص ٢٠٥.
(٩) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩، ٢٨٢ عماد الدين زنكي ص ٢٠٥.
(١٠) الباهر ص ٦٨ عماد الدين زنكي ص ٢٠٥.

وكان مع جيوش زنكي جرائحي لعلاج مصاب الحرب [١]، وربما كان ذلك دليلا على وجود مجموعة، أو هيئة ترافق جند زنكي لإسعاف الجرحى [٢].

* **سلوك الأمراء والجند تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة**: كانت الاعتبارات السياسية والعسكرية هي التي تحدد سلوك الجند وأمرائهم تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة، ففي عام ٥٣٣هـ على سبيل المثال، فتح زنكي حصن بزاعة بالسيف: وقتل كل من فيه من الروم والفرنج [٣]، كرد انتقامي على سلوك الروم والصليبيين تجاه المسلمين لدى استيلائهم على هذا الحصن، ومعاملتهم لأهله بوحشية بالغة [٤]. كما أن هذا الحصن كان يشكل مركزاً عسكرياً مهما لقربه من حلب ومن ثم فإن وجود أية جماعة تؤيد الصليبيين فيه يشكل خطراً على المنطقة كلها وكذلك يمكن القول في موقف زنكي عند فتح الرها عام ٥٣٩هـ، بعد مقاومة شديدة دفعته إلى إطلاق الحرية لجنده وأمرائه في الأيام الأولى من الفتح، فملأوا أيديهم من الغنائم والأسلاب والأسرى[٥]، لكنه لدى اطلاعه على البلد: أعجبه منظره فأسف لمثله في الخراب، ورأى أن خرابه وإخلاءه غير مستحسن، فأمر بإعادة ما أخذ من الغنائم والسبي فردوا، وعاد البلد عامراً، آهلاً بالسكان، بعد أن كان داثراً [٦]. وهكذا نجد أن موقف زنكي بالسماح لجنده بالنهب والأسر كان ذا اعتبار عسكري بسبب المقاومة العنيفة تلك الأعمال كان ذا اعتبار سياسي، إذ كان يرمي من وراء ذلك جعل المسيحيين الوطنيين في الرها كتلة واحدة يقيد منها ضد الصليبيين الذين يخالفونهنم في المذهب، ولعله أراد أن يستعين بالمسيحيين الوطنيين بالإضافة إلى الحامية التركية في المحافظة على الرها بعد طرد القوات الصليبية منها [٧]. ولذلك اجتهد في مصالح - أهل الرها - ووعدهم بإجمال السيرة وبسط العدالة [٨]، وعلى هذا الأساس كانت معاملة زنكي لأهل بعلبك وأمرائها بعد أن أعطاهم الأمان، إذ أن ما اتخذه معهم من شد وقسوة قصد به إثارة خوف المقاتلين له من المسلمين في دمشق [٩].

ف – علاقة عماد الدين زنكي بجنوده: قامت علاقة عماد الدين زنكي بجنده على النظام والطاعة والانضباط من جهة وعلى الود والتعاطف والرأفة من جهة أخرى، بسبب ما قدمه للجند من رواتب حسنة، وما شمل به أهليهم من رعاية واهتمام [١٠]، وكان عقابه صارماً للمخالفين من جنده سيما إذا كانت مخالفتهم على حساب الرعية [١١]، وقد بلغ زنكي من السطوة والنفوذ لدى جنده أنه: إذا ركب

(١) الاعتبار ص ٥٩ - ٦٠.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.
(٣) مفرج الكروب (٨٣/١) عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.
(٤) مفرج الكروب (٧٧/١ - ٧٨) عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.
(٦) المصدر نفسه ص٢٠٦.
(٧) الحروب الصليبية (٨٥٢٧/١) العريني.
(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠.
(٩) عماد الدين زنكي ص ٢٠٧.
(١٠) المصدر نفسه ص ٢٠٩.
(١١) كتاب الروضتين (١١٠/١) عماد الدين زنكي ص ٢٠٨.

مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع، ولا يحسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يحسر أحد من أجناده أن يأخذ من فلاح حفنة من التبن إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية [١]، وكان زنكي يقدر الدور الهام الذي يؤديه الجند في خدمة الإمارة لذلك عني بتوفير الراحة والاستقرار للجندي في كل ما يتعلق به، وبخاصة عائلته وزوجته؛ فكان شديد الغيرة على الحريم، لا سيما نساء الجند، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها وقد علل ذلك بقوله: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري وما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن [٢]، ولذلك كان يعاقب المتعرضين للنساء أشد العقاب وقد مرّ معنا قصة والي جزيرة ابن عمر التابع لعماد الدين زنكي (حسن البرطي) وكيف جرده من كل أمواله وعاقبة [٣].

ص – الاستخبارات: أقام عماد الدين زنكي جهازاً للمخابرات وخصص له الموظفين والرواتب وقد ورد عنه أنه: كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، وكان له في بلاط السلطان السلجوقي من يطالعه وبكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره وحرب وسلم، وهزل وجد، وكان (يصرف) على ذلك الأموال الجليلة، وكان يصل إليه في كل يوم عدة قاصدين أو كتب [٤] كما كان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار [٥]، وقد اتصف عماد الدين زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال: فكان لا يمكن رسول ملك أن يعبر في بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه رسول في العبور إلى بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجمتع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة [٦]، كما كان لا يمكن أحد موظفيه من مغادرة بلاده ويعلل ذلك بأن البلاد، كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها، زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها[٧] وهنالك عدد من الروايات حول هروب بعض موظفيه وفلاحيه إلى الإمارات الأخرى وإلحاحه بإعادتهم إلى إمارته حتى لو اضطره ذلك إلى استخدام القوة [٨] وقد قدم جهاز مخابراته خدمات مهمة له في ظروف شتى ولعب دوراً هاماً في حصار بعرين عام ٥٣١هـ [٩]، وحصار الرها عام ٥٣٩هـ [١٠]، كما كان يستخدمه عماد الدين على أحوال الجند لدى حصارهم بعض المواقع

(١) زبدة حلب (٢٨٣/٢ - ٢٨٤).
(٢) الباهر ص ٨٤، عماد الدين زنكي ص ٢٠٨.
(٣) الباهر ص ٨٤ عماد الدين زنكي ص ٢٠٨.
(٤) الباهر ص ٧٨، كتاب الروضتين (١١١/١) عماد الدين زنكي ص ٢٠٩.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٢٠٩ نقلاً عن الباهر.
(٦) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٠٩.
(٧) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(٨) كتاب الروضتين (٢٨٣/٢).
(٩) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(١٠) عماد الدين زنكي ص ٢١٠.

وملاحظة ما يصل إليهم من رواتب وسلاح [١]، وكان عماد الدين زنكي مع اشتغاله بأمور الدولة الهامة لا يهمل الاطلاع على القضايا الثانوية، معللاً ذلك بأن الصغير إذا لم يعرف ليمنع صار كبيراً [٢]. وكان من الطبيعي أن رجال المخابرات في الدولة الزنكية ارتبطوا بعماد الدين مباشرة نظراً لأهمية دورهم السياسي والعسكري، ولأنهم كانوا يتسلمون أوامرهم المباشرة منه [٣].

١ – كان عماد الدين زنكي رجلاً ذا هدف واضح، وهذا أول شروط النجاح، وكان جاداً ومثابراً في تنفيذ خططه، وكان غالباً لا يهادن الصليبيين قاسياً عليهم وكان حريصاً على نشر الخوف في حصونهم وقلاعهم ومدنهم، وكان يقدر الظروف الحربية، فقد هادن جوسلين عندما قدم إلى الموصل لكي يتفرغ لإصلاح البلاد وتجنيد الأجناد، وتجنب مهاجمة مملكة بيت المقدس، حتى لا يثير أوروبا ضده، فقد كان هدفه القضاء على الأطراف مثل الرها، وأضعاف أنطاكية والقضاء على إمارة طرابلس وله فقه كبير في السياسة الحربية [٤] سيتبين بإذن الله تعالى عند الحديث عن جهوده الوحدوية وأعماله الجهادية.

٢ – نظام الإقطاع العسكري:

أدرك زنكي ضرورة توزيع الإقطاعات على أمرائه وجنده نظراً لطبيعة الظروف الحربية والسياسية التي جابهتها إمارته، حيث انتشرت مجموعة من الإمارات المحلية المتنافسة في الجزيرة والشام والجبال وشرقي الموصل، فضلاً عن إمارات الصليبيين، فكان ذلك يحتم عليه اتباع الأساليب التي تضمن له تشكيل قوة عسكرية متمكنة، يخلص أفرادها لأميرهم ومصلحة إمارتهم بناء على وجود مصالح مشتركة، وليس ثمة في تلك الفترة ما هو أحسن من الأسلوب الإقطاعي لضمان تكوين الجندي المخلص والجيش القوي المنظم لذلك كان أول عمل قام به زنكي عند دخوله الموصل ٥٢١هـ هو (تقرير قواعد الجنود وإقطاع العساكر) [٥]، كما جعل من منهجه قبل الاصطدام مع الصليبيين الاستيلاء على ما بقي من البلاد الشامية والجزرية، وإصلاح شأنها، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم [٦]، وفي سبيل تحقيق ذلك عقد هدنة مؤقتة مع صليبي الرها [٧]، ولم تكن معظم مدن الموصل والجزيرة وشمالي الشام خاضعة لزنكي عند توليته هذه المناطق رسمياً من قبل السلطان السلجوقي، لذا غدت معظم عمليات التوزيع الإقطاعي متوقفة إلى حد كبير على فتوحاته ومتدرجة زمنياً مع أوقات هذه الفتوحات، فكان كلما استولى على بلد رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء [٨]، وفضلاً عن قيام المقطع بالدفاع عن المنطقة وإمداد

(١) الباهر ص ٧٨ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(٢) الباهر ص ٧٨، عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(٤) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٩، ١٧١.
(٥) الباهر ص ٣٦ عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٦) الباهر ص ٣٧ عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٧) الباهر ص ٣٧، مفرج الكروب (٣٦/١).
(٨) الكامل نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٨.

جيوش زنكي بقوات من عنده في حالات القتال [١]، فقد استخدم الأخير الإقطاع لأغراض أخرى أهمها الغرض الإداري، وهو قيام المقطع بإدارة أمور ولايته كوال من قبل زنكي على تلك المنطقة [٢] أو لإبعاد الشخص الذي يرى في وجوده خطراً بإقطاعه منطقة بعيدة [٣]، أو لإكرام بعض أمرائه المقربين اعترافاً بفضلهم [٤]، أو لإغراء بعض أعدائه بتسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق [٥]، كما أنه تنازل عن بعض الحصون التي فتحها في ديار بكر لحسام الدين تمرتاش أمير بني أرتق وذلك لأغراض سياسية تستهدف تقوية حلفه مع حسام الدين ضد أعدائه في المنطقة [٦]، وإليك أسماء بعض الأمراء والقواد الذين أقطعهم زنكي بعض المدن والحصون:

أ - الأمير جاولي الذي كان وصياً على ابن عز الدين مسعود والي الموصل المتوفى عام ٥٢١هـ، أقطع الرحبة تخلصاً من خطره [٧].

ب - بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري، قاضي قضاة الموصل، وهبه زنكي أملاكاً وإقطاعاً [٨]، لم تحددها المصادر [٩].

ج - أبو بكر البكجي، أحد كبار أمراء زنكي، أقطع نصيبين [١٠].

د - سوتكين الكرجي، أقطع حران عام ٥٢٢هـ أو ٥٢٣هـ وفي عام ٥٢٧هـ أعلن العصيان وقد استطاع زنكي القضاء عليه عام ٥٣٣هـ وعين نوابه هناك [١١].

هـ - صلاح الدين الياغسياني (أمير حاجب). أقطع حماة عام ٥٢٣هـ.

و - زين الدين علي كجك بن بكتكين، أحد كبار قواد زنكي أقطع أربل عام ٥٢٦هـ [١٢]، وعقر الحميدية وأعمالها عام ٥٢٨هـ [١٣] وشهرزور [١٤].

ز - شهاب الدين أميرك الجاندار، أقطع الرقة عام ٥٢٩هـ [١٥].

ح - نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه: قطعهما زنكي في بلد شهرزور إقطاعاً سنياً، وقيل:

---

(١) مفرج الكروب (١٠٣/١) عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٣) الباهر ص ٣٥ عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٤) الباهر ص ١٦، عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠، عماد الدين زنكي ص ٢١٩.
(٦) عماد الدين زنكي ص ٢١٩.
(٧) كتاب الروضتين (٧٦/١) عماد الدين زنكي ص ٢١٩.
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٩.
(٩) عماد الدين زنكي ص ٢١٩.
(١٠) الباهر ص ٧٩.
(١١) مفرج الكروب (٨٤/١).
(١٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨.
(١٣) عماد الدين زنكي ص ٢٢٠.
(١٤) المصدر نفسه ص ٢٢٠.
(١٥) المصدر نفسه ص ٢٢٠.

إنه أقطع أسد الدين بالمؤزر [١] وذلك بعد التجائهما إليه في أواخر عام ٥٣٢هـ.

ط - عز الدين الدبيسي من أكابر أمراء زنكي، كانت دقوقاً من جملة إقطاعه [٢].

ي - ناصر الدين كوري بن جكرمش (والي الموصل ٤٩٥ - ٥٠٠هـ) أقطعه زنكي إقطاعاً كثيراً اعترافاً بفضل والده [٣].

ك - الأمير سوار بن إيتكين التركماني، ولي حلب عام ٥٢٤هـ [٤] وأجرى عليه زنكي الإقطاعات الكثيرة، واعتمد عليه في قتال الفرنج [٥].

ل - نجم الدين أيوب الذي ولاه زنكي بعلبك عام ٥٣٤هـ، بعد أن أقطعه ثلثها، وقيل: نصفها[٦]. وكان زنكي يمتلك بعض الاقطاعات، خارج حدود إمارته حصل عليها في ظروف استثنائية، كتلك التي وهبه الخليفة المقتفي إياها، من أملاكه الخاصة في بغداد، رغبة في استمالته[٧] وقال متحدثاً عن ذلك: هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف، وهي أن يكون له في العراق إقطاع [٨]. ومن ثم اعتبر هذا النوع من الإقطاع شاذاً. فهذه بعض الأسماء التي قدمتها المصادر عن مقطعي زنكي من كبار الأمراء والقواد، والراجح أن عدداً كبيراً من المقطعين لم تشر إليهم المصادر، إما إغفالاً منها، أو لعدم أهمية الأماكن التي أقطعت لهم من النواحي العسكرية والجغرافية وربما لقلة اشتهار المقطعين أنفسهم [٩]، وقد وزعت الإقطاعات على الجند فضلاً عن الأمراء، وتشير النصوص الواردة في ذلك إلى أن زنكي كان يقوم بنفسه أحياناً، بتقرير قواعد الجند وإقطاعهم [١٠] وأورد ابن الأثير في الباهر الإجراء الذي اتخذه زنكي بشأن أمرائه المقطعين، إذ نهى هؤلاء: من اقتناء الأملاك معللاً ذلك بقوله: ما دامت البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك؟ فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم، وغصبوا أملاكهم [١١]. وهذا النص يؤكد بوضوح عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل المقطعين بل كانت هذه الملكية بيد الفلاحين [١٢]، والأهالي [١٣]،

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢١.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢١.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٢١.
(٧) عماد الدين زنكي ص ٢٢١.
(٨) الباهر ص ٥٤ عماد الدين زنكي.
(٩) عماد الدين زنكي ص ٢٢١.
(١٠) الباهر ص ٣٥ - ٣٦، ٣٧.
(١١) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٢٢.
(١٢) زبدة حلب (٢٨٣/٢ - ٢٨٤) عماد الدين زنكي ص ٢٢٣.
(١٣) مفرج الكروب (٧٤/١ - ٧٥).

مقابل دفع ضريبة سنوية للحكومة والمقطعين [١]، وقد كان لهذا الإجراء الذي اتخذه زنكي بمنع المقطعين من (التملك) نتائج إيجابية.

* إذ أن اقتناء الأملاك من قِبل هؤلاء يؤدي إلى أضرار عديدة قد تلحق بالأهالي وبمصلحة الإمارة على حد سواء أولها ما يجر إليه المقطعين من ظلم للرعية واعتداء عليهم واغتصاب لأملاكهم، ذلك أن الأمير في حالة كهذه سيستخدم ما يمتلكه من نفوذ وسلطة للضغط على أصحاب الملك ببيعه ملكهم بأقل ثمن، وربما دفعهم إلى التنازل عنه بالقوة [٢]، وقد أدرك ابن الأثير مدى عدالة زنكي في هذه الخطوة فعلق عليها قائلاً: فما أحسن هذا الخلق - أي خلق زنكي وأحسن هذا النظر للرعايا، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم. لا خلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل، وكف الأيدي المتطاولة إلى أهلها [٣].

* وفضلاً عن ذلك، فإن من نتائج اقتناء المقطعين للأملاك تجمع الثروة بأيدي طبقة محدودة من الأمراء، واحتكار هذه الطبقة لموارد الرزق، بينما تبقى أكثرية السكان في فقر مدقع.

* هذا إلى أن اقتناء الأمراء للأملاك والعناية بها قد يؤدي بهم إلى عدم توجيه جهودهم لكل ما يتعلق بالجندية والدفاع وهي الأمور التي أقطعوا الأراضي والأعمال من أجلها [٤].

ويستدل من بعض الروايات أنه لم يكن يشترط في المقطع البقاء في إقطاعه خاصة إذا كان من أصحاب الوظائف العالية التي تقتضي ملازمته لزنكي وكان المقطع في هذه الحالة ينيب عنه من يقوم بإدارة إقطاعيته، كما حدث بالنسبة لجمال الدين محمد بن أيوب الياغسياني، أمير حاجب زنكي، الذي أقطع عدة مدن، فأناب في كل منها من يعتمد عليه في إدارة شؤونها [٥] كحماة التي أناب فيها ابنه شهاب الدين أحمد [٦]، وحصن الخربة الذي أناب فيه عيسى الحاجب [٧]، وكذلك بالنسبة لزين الدين على كجك بن بكتكين قائد زنكي في الموصل، الذي أقطع أربل وعقر الحمدية وأعمالها ومن المرجح أنه أناب عنه فيهما من يدير شؤونهما، بدليل عدم مغادرته الموصل إلى إقطاعه في أربل إلا عام ٥٦٣هـ [٨].

وتشير الروايات إلى أن نور الدين محمود بن زنكي أدخل نظام التوريث في الإقطاع، إذ كان: من آرائه الحسنة ما كان يعتمده في أمر أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلف ولداً ذكراً، أقر الإقطاع عليه. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها وكان ذلك

(١) الباهر ص ٧٩ زبدة حلب (٢/٢٨٠).
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٢.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٢٣.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٣.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ الاعتبار ص ٩٧ - ٩٨.
(٧) الاعتبار ص ٧٨.
(٨) الباهر ص ٧٨، الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين ص ٢٢٤.

من أعظم الأسباب لصبر الجند في الحروب بين يديه [١]. وقد رجح الدكتور عماد الدين خليل أن زنكي سبق ابنه في إدخال هذا النظام، إذ هنالك سابقة من عهده تُشير إلى هذا الاتجاه الجديد في نظام الإقطاع، وذلك عندما قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق إلى الشام؛ وأسكنهم بولاية وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكاً لهم، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم وأخذوا كثيراً من السواد [٢]، وسدوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ٦٠٠هـ. ولا شك أن زنكي أدرك كما أدرك ولده من بعده مدى النتائج الإيجابية التي يمكن أن يؤدي إليها نظام التوريث هذا، وأهمها إخلاص جنده له، واستماتتهم في القضاء على ما يهدد إمارته من أخطار لما في ذلك من مصلحة لهم ولأولادهم الذين سيرثون إقطاعهم من بعدهم [٣].

٣ – نظام الإعداد القيادي (الأتابكية):

وهي كلمة مشتقة من الكلمة التركية أتابك المركبة من المقطعين (أتا) بمعنى: أب و (بك) بمعنى أمير، وتعني (الوالد الأمير) وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى تربية أبناء الملوك والسلاطين، ويرعى شؤونهم وكان الأتابك: هو الحاكم الأعلى في الأتابكية، وكان يلقب بالملك أيضاً، وله الإشراف على جميع شؤون المملكة أو الأتابكية، كما أنه يعد المسؤول الأول عن السياسية الخارجية، ومن حقه أن يعلن الحرب ويقود الجيوش، ويعين الولاة والقواد، فهو لذلك أشبه بالسلطان السلجوقي، كما أن له الحق في نقش اسمه على السكة، والدعاء له في الخطبة إلى جانب اسم الخليفة والسلطان [٤].

وقد عرف عماد الدين زنكي بلقب (الأتابك) منُذ تعينه حاكماً على الموصل عام ٥٢١هـ، واشتهرت الإمارة التي أسسها باسم (أتابكية الموصل) والسلالة التي أعقبته في الحكم باسم الأتابكة، وقد بدأت تسمية زنكي بهذا اللقب في شعبان عام ٥٢١هـ عندما ولاه السلطان محمود الموصل وسلمه ولديه ألب أرسلان، وفرّوخ شاه (المعروف بالخفاجي) وجعله أتابكاً لهما [٥]، وقد ترتبت على (أتابكية زنكي) نتائج عديدة، فقد كان عليه من الناحية الرسمية أن يحكم باسم ألب أرسلان، أكبر الأميرين، وأن يخطب له، ولذلك أظهر للخلفاء والسلاطين وأصحاب الأطراف أن البلاد التي يحكمها: إنما هي للملك ألب أرسلان [٦]، وأنه نائب فيها: فكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا [٧] وكذا وكان هذا الإجراء من قبل زنكي لا يعدو أن يكون شكلياً، إذ أن السلطة الفعلية كانت متركزة في يده، ولم يكن لأحد من ابني السلطان محمود أية سلطة عملية، بل

(١) مفرج الكروب (٢٨٠/١).
(٢) المنطقة الزراعية المحيطة بحلب عماد الدين زنكي ص ٢٢٥.
(٣) كتاب الروضتين (١١١/١، ١١٢).
(٤) دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ص ٢٣٦.
(٥) وفيات الأعيان (٣١٥/١ - ٣١٦) عماد الدين زنكي ص ٢٢٦.
(٦) عماد الدين زنكي ص ٢٢٧.
(٧) الباهر ص ٧١ عماد الدين زنكي ص ٢٢٧.

كانا أشبه بالمحتجزين، إذ فرق زنكي بينهما فجعل أحدهما في أحد معاقل سنجار، والآخر تحت إشراف زوجته في الموصل [١]، وقد استهدف من الخطبة لألب أرسلان إلقاء الصفة الرسمية (الشرعية) على سياسته وأعماله مستغلاً اسم الملك السلجوقي كما عمل زنكي على استغلال وجود هذين الملكين السلجوقيين، فقام بمحاولات ثلاث (٥٢٥هـ - ٥٢٩هـ) لتنصيب ألب أرسلان على عرش سلاجقة العراق بالاتفاق مع الخليفة العباسي ضد السلطان السلجوقي في أصفهان وقد استهدف من وراء ذلك جعل السلطة الفعلية لسلاجقة العراق بيده باسم السلطان الشرعي المنصب ولكن هذه المحاولات انتهت جميعاً بالفشل [٢].

أ – محاولة انقلابية في الموصل:

قامت مؤامرة ضد عماد الدين زنكي تزعمها الملك الخفاجي عام ٥٣٩هـ أثناء غياب زنكي عن الموصل، إذ اتفق الخفاجي وأنصاره على اغتيال نصير الدين جقر نائب زنكي في الموصل ومن ثم السيطرة على المدينة وإعلان العصيان ضد زنكي ففي صباح الثامن أو التاسع من ذي القعدة عام ٥٣٩هـ ركب جقر في موكبه كعادته واخترق شوارع المدينة متجهاً إلى الدار التي يقيم فيها الملك الخفاجي للتسليم عليه [٣]، فحسَّن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنَّك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان عليك فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه كعادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرَّقوا، ويملك الملك البلاد وكان الأمر بخلاف ما ظنُّوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدّار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة عماد الدين مملوءة بالرّجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء [٤].

ب – دور العلماء في تثبيت عماد الدين:

كان عماد الدين زنكي منشغلاً بمحاصرة البيرة سنة ٥٣٩هـ وكانت هذه المدينة قد أوشكت على السقوط في يد عماد زنكي فورد إليه نبأ مقتل نائبه بالموصل نصير الدين جقر فانزعج كثيراً واضطر عماد الدين إلى الرحيل عن البيرة وأرسل نائباً عنه إلى الموصل لاستطلاع حقيقة الأمر وهو القاضي تاج الدين بن يحيى بن الشهرزوري كان ملازماً لعماد الدين أثناء محاصرته للبيرة، فلما وصل تاج الدين إلى الموصل علم أن الملك السلجوقي ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كان وراء مقتل نصير الدين جقر ليملك الموصل في غياب عماد الدين عنها [٥]، ولذلك قام القاضي تاج الدين بن الشهرزوري بخدعة كي يفسد على الملك السلجوقي زعيم الانقلاب بالموصل مخططه،

(١) عماد الدين زنكي ص ٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٧.
(٤) كتاب الروضتين.
(٥) دور الفقهاء العلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٣.

فدخل في الدار التي كان يحاصره فيها أصحاب جقر وأصحاب عماد الدين زنكي، وظل يخادعه بمعسول الكلام ويحسن له ما فعله مع جقر ويشجعه على الصعود إلى قلعة الموصل حتى يملكها ويكون في مأمن، حيث يوجد بها الأموال والسلاح فيستطيع بعد ذلك تملك الموصل، فاقتنع الملك السلجوقي بن محمود وخرج في صحبة القاضي تاج الدين وصعدا معاً إلى القلعة، وهناك قبض عليه وعلى من معه من أتباعه الذين قتلوا نصير الدين جقر، وبعد ذلك توجه القاضي تاج الدين إلى عماد الدين زنكي وبلغه بكل ما فعله فسكن جأشه واطمأن قلبه [١]، ومما تقدم يتضح لنا مدى ما بلغه القاضي تاج الدين من الفطنة وحسن التصرف، مثل باقي أقاربه من بيت الشهرزوري الذين امتلأت بهم دولة عماد الدين زنكي [٢] وعين عماد الدين زنكي قائده زين الدين علي كجك ليحل محل جقر نائب الموصل المقتول ثم ذهب هو بنفسه بعد ذلك لإقرار الأوضاع هناك[٣].

ج – سياسة عماد الدين مع الملك الآخر ألب أرسلان:

أبدى زنكي، بعد مقتل الخفاجي، عطفه على الملك الآخر ألب أرسلان، فألغى احتجازه في أحد معاقل سنجار وعطف عليه وعُني بتفاصيل أمره وعين له حراساً وموظفين لخدمته واهتم بمراسيم جلوسه وركوبه، وطالب رجاله بالاهتمام بأمره واحترامه وتلبية مطالبه وقد استهدف من هذه الإجراءات تغطية مقتل الملك الخفاجي [٤]، كي لا يثير السلاجقة ضده ومحاولة منه لاستغلال ألب أرسلان لتحقيق أمله في المستقبل وذلك بالمطالبة بتوليته سلطنة العراق. بعد وفاة عمه السلطان مسعود، ليصبح زنكي المتحكم الفعلي باسم السلطان الجديد [٥].

* * *

(١) الباهر ص ٧٢ دور الفقهاء والعلماء ص ١١٣.
(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٤.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٢٢٩.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٢٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٣٠.